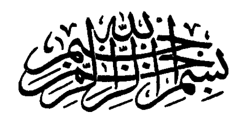
مداخل الشيطان لإفساد القلوب

تأليف

وحيد بن عبد السلام بن بالي

دار ابن رجب



الطبعة الحادية عشر

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

الناشر

دار ابن رجب

المركز الرئيسي : فارسكور : ٠٥٧/٤٤١٥٥٠ - ٠١٢٣٨٣٠٣٥٦
فرع المنصورة : محطة الأتوبيس الدولية : ٠٥٠/٢٣١٢٠٦٨

مداخل الشيطان
لإفساد القلوب

مداخلُ الشيطان لإفسادِ القلوبِ

أهمية القلب :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود ، الذى تصدر كلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله ، قال النبىﷺ : « **ألاَ وإنَّ فِى الجَسد مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه** »[١] فهو ملكها وهى المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هدايته ولا يستقيم لها شىء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راع مسئول عن رعيته . أ هـ[٢] . ولذا كان القلب هو محل الاختبار والابتلاء ، وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول اللهﷺ يقول : « **تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوب كَعَرْضِ الحَصِير عُودًا عُودًا ، فَأىُّ قَلْبٍ أُشْرِبُهَا نُكِتَتْ فِيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأىُّ قَلْب أنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيه نُكْتَة بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصير عَلَى قَلْبَيْنِ ، قَلْبٌ أَبْيَضُ مثْل الصَّفَا ، فَلاَ تَضُرهُ فِتْنَةٌ مَادَامت السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ . والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كالكُوزِ مُجَخِّيًا ،لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إلاَّ مَا أُشرِبَ مِنْ هَوَاهُ** »[٣] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

فشبه عَرْضَ الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا ، كعرْض عيدان الحصير وهى طاقاتها شيئاً فشيئاً، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشربها ، كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تُعرض عليه حتى يسود وينتكس ، وهو معنى قوله « **كَالكُوزِ مُجَخّياً** » : أى مكبوبًا منكوسًا ، فإذا اسوَّد انتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران مترامِيان به إلى الهلاك :

---

(١) **متفق عليه** : البخاري رقم (٥٢) في الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، ومسلم رقم (١٥٩٩) في المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٥) .

(٣) **صحيح** : رواه مسلم رقم (١٤٤) في الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا .

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، وربما استحكم عليه هذا المرض ، حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً .

الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به النبي ﷺ ، وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان ، وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ، فازداد نوره وإشراقه وقوته .

◉ والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، فتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل ، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد . أ هـ[١] .

ولذلك يجب على المسلم أن يراقب قلبه ويتعرف أحواله ويتخوله بالموعظة بين الحين والآخر ، وليعلم أنه بصلاحه تكون السعادة الأبدية ،وبفساده يكون الشقاء والبلاء والخسران المبين .

◉ واعلم أنه كلما ازداد إيمان القلب ، وقوى يقينه ، زاد نوره الذي يميز به بين الحق والباطل والهدى والضلال ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يزْهر ، وَقَلْبٌ أغْلَفُ مَرْبُوط عَلَى غلاَفه ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبُ مُصفحٌ . فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنَ سرَاجُهُ فيه نوره ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِر ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ المنَافقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فيه إيمَانٌ وَنفَاقٌ ، فَمثلُ الإِيمَان فِيه كَمثْلِ الْبَقْلَة يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمثْلِ الْقُرْحَة يَمُدُّهَا الْقيحُ وَالدَّمُ ، فَأَىُّ الْمَادَتَيْنِ غَلَبَ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَ عَلَيْهِ** »[٢] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

فقوله : « **قَلْبٌ أَجْرَد** » : أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرَّد وسلم مما سوى الحق و « **فِيهِ سِرَاجٌ يَزْهَرُ** » : وهو مصباح الإيمان ، فأشار بتجرده إلى سلامته من

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١٢) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٣ / ١٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١ / ٦٣) : رجال أحمد رجال الصحيح ، والحديث عند الطبراني في الصغير (٢ / ١١٠) وأبو نعيم في الحلية (٤ / ٤٨٥) .

شبهات الباطل وشهوات الغي ، بحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار « **بِالْقَلْبِ الأَغْلَفِ** » إلى قلب الكافر ؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ (١) وهو جمع أغلف وهو الداخل في غلافه ، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله عز وجل على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله .

فهي أكنة على القلوب ، ووقر في الأسماع ، وعمًى في الأبصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ (٢) فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولَّى أصحابُها على أدبارهم نفورًا .

◉ وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق كما قال تعالى : ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا** ﴾ (٣) أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه ، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة ، وهو شر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطل حقًا ويوالي أصحابه ، والحق باطلاً ويعادي أهله ، فالله المستعان .

◉ وأشار بالقلب « **الذي لَهُ مَادَّتَانِ** » إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ، ولم يظهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر ، والحكم للغالب وإليه يرجع . أهـ(٤) .

ومن هنا يتبين لنا : أن مدار الأعمال على القلب ، فهو القائد ، والجوارح جنوده ، يوجهها حيث أراد .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس ، وأقبل بوجود الشهوات إليه ، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق ، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبائل ، فإن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى ، والتعرض لأسباب مرضاته

(١) سورة البقرة الآية (٨٨) .
(٢) سورة الإسراء الآية (٤٥ ـ ٤٦) .
(٣) سورة النساء الآية (٨٨) .
(٤) إغاثة اللهفان (١ / ١٢) .

والتجاء القلب إليه وإقباله عليه فى حركاته وسكناته ، والتحقق بذل العبودية الذى هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول فى ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١) فهذه الإضافة هى القاطعة بين العبد وبين الشياطين ، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين ، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) . أهـ (٣) .

ونقاء القلب وإخلاصه يرفع صاحبه درجات، فقد روى ابن ماجه ،عَنْ عَبْدِاللَّه بْن عَمْرو قَالَ قِيلَ لِرَسُول اللَّه ﷺ أيُّ النَّاس أفْضَل ؟ قَالَ : « **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ** » قَالُوا : صَدُوقُ اللِّسان نَعْرِفهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْب؟ قَالَ : « **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ** » (٤) .

كيفية الوسوسة :

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

الوسواس (فعلال) من وسوس ، وأصل الوسوسة الحركة ، أو الصوت الخفى الذى لا يحس فيحترز منه .

فالوسواس : الإلقاء الخفى فى النفس إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من أُلقِيَ إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد . أهـ (٥) .

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ فى الوسوسة :

هى مبدأ الإرادة فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ، ويخطر الذنب بباله ، فيُصوِّر لنفسه ويُمنيه ويشهيه فيصير شهوة ، ويزينها له بحسنها له ويخيلها فى خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة . ثم لا يزال يمثل ويخيل ويُمنّى ويشهى وينسى علمه بضررها ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة

(١) سورة الإسراء الآية (٦٥) . (٢) سورة الحجر الأية (٤٠) .
(٣) إغاثة اللهفان (١ / ٦) .
(٤) **صحيح** : رواه ابن ماجه (٢ / ١٤٠٩) ، حديث رقم (٤٢١٦) في الزهد ، باب الورع والتقوي ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء (١٣٦٤) : إسناده صحيح ، وقال البوصيري في الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .
(٥) التفسير القيم (٦٠٠) .

المعصية والتلذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث جنوده فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مددًا ولهم عونًا ، فإنَ فَتَرُوا حركهم ، وإن ونَوْا أزعجهم ،كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [1] أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجًا ، كلما فتَرُوا أو ونَوْا أزعجتهم الشياطين ، وأزتهم وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع ، بألطف حيلة وأتم مكيدة .

وقد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم آدم فلا اعتز بتلك النخوة ولا فاز برضاه أن يصير قوّادًا لكل من عصى الله كما قال بعضهم :

عَجبتُ منْ إبليسَ فى تيهه ... وَقُبحِ مَا أظْهرَ منْ نَخْوَته
تَاهَ عَلى آدمَ فى سَجْدة ... وَصَـــارَ قَوَّادًا لذُرِّيَّته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة .

كيف يدخل الشيطان على الإنسان ؟

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ : وإنما يدخل على الناس بقدر ما يُمكنُهُ ، ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم ،وغفلتهم ، وجهلهم ،وعلمهم .

واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم ـ أى نوافذ ـ وساكنه العقل والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن ، وإلى جانبيه ربض فيه الهوى والشياطين ، تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم ، فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وُكِّلَ حفظه . وجميع الثلم ، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو لا يفتر .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

◉ وهذا الحصن مستنير بالذكر ، مشرق بالإيمان ، وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور

---

(١) سورة مريم الآية (٨٣) .

كل ما يمرّ به ، فأول ما يفعل الشيطان فى الربض إكثار الدخان ، فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة . وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس ، فيخرج وربما دخل فعاث ـ أى أفسد ـ وربما أقام لغفلة الحارس ، وربما كدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة ، فيمرّ الشيطان ولا يدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم ، وأقام يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه فى الشر .

◉ **قال بعض السلف** : رأيت الشيطان فقال لى : كنت ألقى الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم ! وربما هجم الشيطان على الذكى الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاَّها ، فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأثره .

وأقوى القيد الذى يُوثَقُ به الأسرى : الجهل ، وأوسطه فى القوة : الهوى ، وأضعفه : الغفلة ، وما دام درع الإيمان على المؤمن فإن نبل العدو لا يقع فى مقتل أهـ(١)

ثم ساق بسنده ، عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن ، قالوا : ليس علينا أشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبًا . أهـ .

◉ **واعلم أخى المسلم** : أن الشيطان لا يدخل إلا على ذى القلب الخالى من الذكر والتقوى والإخلاص واليقين ، فيلقى وساوسه فتجد المحل خاليًا فتتمكن منه وتستقرّ فيه كما قيل :

أَتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أعْرِفَ الهَوَى   فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمكَّنَا

وأما إذا كان القلب عامرًا بالإيمان مُسربلاً بالتقوى ، مُحصنًا بالذكر ، فلا يكون للشيطان عليه سلطان ، ولا إليه سبيل .

والطامة الكبرى فيما إذا كان القلب محشوًا بالهوى والشهوة ، فهما قوت الشيطان فلا يمكن دفعه ، وهذا كمثل كلب جائع مر برَجُل بين يديه لحم ، فكلما زجره لم ينته ، فإذا رفع اللحم من بين يديه يئس الكلب وانصرف ، كذلك صاحب القلب الملىء بالشهوات فلا بد أن يطهره أولاً منها ، ثم يعمره بالتقوى ، وفى هذه الحالة عندما يقول أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم انصرف عنه الشيطان .

ومَنْ فَهم هَذا عَرفَ سبب قلة جدوى الاستعاذة عند كثير من الخلق ،

---

(٢) تلبيس إبليس ٣٨ .

فليست الاستعاذة مانعة للشيطان إلا إذا كان قلب المستعيذ خاليًا من قوت الشيطان وعامرًا بالتقوى والإيمان : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (١) فهذه الآية خاصة بالمتقين دون غيرهم .

مراتب الإغواء :

الشيطان يتعقب الإنسان ويتتبعه ، ولا يبرد أنينه إلا إذا أغواه وأفسده ، وضمه إلى حزبه الخاسرين ، وقد جمع ابن القيم رحمه الله تعالى مراتب إغواء الشيطان للإنسان فقال :

◉ **المرتبة الأولى :**

الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بَرَدَ أنينه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى ينال منه ، فإذا نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره ،واستَنَابَهُ على أمثاله وأشكاله ، فصار من دعاة إبليس ونوابه .

◉ **المرتبة الثانية :**

وهى البدعة ، وهى أحب إليه مـن الفسوق والمعاصى ؛ لأن ضررها فى نفس الدين ، هو ضرر متعدّ ، وهى ذنب لا يُتاب منه ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به . وهى باب الكفر والشرك ، فإذا نال منه البدعة ، وجعله من أهلها بقى أيضًا نائبه ، وداعيًا من دعاته ، فإذا أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ،ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى :

◉ **المرتبة الثالثة :**

وهى الكبائر على اختلاف أنواعها ، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها ولا سيما إذا كان عالمًا متبوعًا : فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا ـ بزعمه ـ إلى الله تعالى وهو نائب إبليس ولا يشعر : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**

(١) سورة الأعراف الآية (٢٠١) .

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (١) هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها ، لا نصيحة منهم ، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه .

كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع بعلمه . وذنوب هذا لو بلغت عنان السماء أهون عند الله لأنه إذا تاب قَبِلَ الله توبته ، وبَدَّل سيئاته حسنات . وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعوراتهم ، وقصد لفضيحتهم .

والله سبحانه بالمرصاد ، لا تخفى عليه كمائن الصدور ، ودسائس النفوس . فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى :

◉ **المرتبة الرابعة :**

وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها . قلت : روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذنوب فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ ،وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ** » (٢) . قال الحافظ : سنده حسن .

◉ وروى الدارمىُّ وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « **إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا** » (٣) .

◉ وروى أسد بن موسى فى الزهد ، عن أبى أيوب الأنصارى قال : إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ، وينسى المحقرات ، فيلقى الله وقد أحاطت به ، وإن الرجل ليعمل السيئة فيكون منها مشفقًا حتى يلقى الله آمناً (٤) .

قال ابن القيم : فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى :

◉ **المرتبة الخامسة :**

وهى إشغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوات الثواب

(١) سورة النور الآية (١٩) .
(٢) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٠٢ ، ٤٠٣) وصحح إسناده الشيخ محمد شاكر .
(٣) **صحيح** : رواه ابن ماجة (٤٢٤٣) ، في الزهد ، باب ذكر الذنوب ، والدارمي (٢/ ٣٠٣) رقم (٢٧٢٦) ، وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧٠) . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١٣)
(٤) فتح البارى (١١ / ٣٣٠) .

الذى ضاع عليه باشتغاله بها (قلت وهذه المباحات مثل : كثرة النوم ، والطعام ، والشراب واللباس ، والسهر فيما لا يفيد) . قال فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، وكان حافظًا لوقته شحيحًا به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى :

◉ المرتبة السادسة

وهو أن يشغله بالعمل المفضول عن الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويُحَسِّنه له ، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه . وقل من ينتبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيًا ومحركًا إلى نوع الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بالخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعى من الله ، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وإما ليفوِّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأفضل (١) .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله - عز وجل - يقذفه فى قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله تعالى ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولعباده المؤمنين - خاصتهم وعامتهم - ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه فى الأمة ، وخلفائه فى الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر ذلك بقلوبهم . والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده .

◉ فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه ، يُسلطُ عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتحذير منه وقصد إخماده وإطفائه ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينى (٢) . أ هـ (٢) .

---

(١) مثل الانشغال بتلاوة القرآن بين الأذان والإقامة ، ولكن الدعاء أفضل كما صح عن النبى ﷺ (**الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة**) فقد يحضه الشيطان على التلاوة فى هذا الوقت بالذات ليشغله عن الدعاء .

(٢) التفسير القيم (٦١٤) .

(٢) ولا ينى : ولا يضعف ولا يفتر .

وهذا واضح فى مجتمعنا ، فما من عبد التزم بدينه ، واستمسك بهدى نبيه وسنته ، وسار على نهجه إلا وجد الصدود والعناد والسخرية والاستهزاء من الأقارب والأباعد والأصدقاء والأعداء ، فليس له ملجأ إلا إلى الله . وهذا شاب جرت له هذه المحنة فانبرى يقول :

عَبْد سَرَى فى لَيْلَة ظَلْمَاء ... هَرَبا بتقواهُ منَ الْفَحْشَاء
هَرَبا من الفتن التى حَاطَتْ به ... منَ فتنة السَّراء والضَّراء
عَبْدٌ فتى فى مُسْتَهَلِّ شَبَابه ... عَرَفَ الْهُدَى وَطَرِيقَهُ بصَفَاء
قَرَأَ القُرْآنَ تَفَهُّمًا وَتَدَبُّراً ... وكَذَا اهْتَدَى للسُّنة الغَرَّاء
وَرَأى حَيَاةَ الصَّالحين سَعِيدَةً ... بالخَير فى الإصباح والإمْسَاء
فَتَشَوَّقَتْ نَحْوَ السَّعَادة نَفْسُهُ ... وَغَدَا يُهَدْهِدُ شَوْقَهُ بخَفَاء
حَتَّى إذَا التَزَمَ الْهُدَى بعَزِيمة ... للّه خَالصَة منَ الأهْوَاء
نَادَتْ به فتَنُ الضَّلالة جَهْرَةً ... وَدَعَتْهُ بالتَّزْيين والإغْرَاء
وَتَزَيَّنَتْ دُنْيَاهُ فى أَثْوَابهَا ... بمبَاسم وَنَوَاظر كَحْلاء
وَغَدَتْ تَغُرُّ النَّاسَ فى إغْوَائها ... حَتَّى أضَلَّتْ أكْثَرَ الدَّهْمَاء
ونَشَا بمجْتَمَع به اختْلَطَ الهُدَى ... بقُوَى الرَّدَى والنُّورُ بالظَّلْمَاء
والنَّاسُ تَأْخُذُ مِنْهُ ما يُرضى الهوَى ... فَإذَا تَعَارَضَ فَهْوَ فى إقْصَاء
إنْ جئْتَ بالحقِّ الصَّريح تُقيمُهُ ... وَصَدَعْتَ فيه بسُنَة بَيْضَاء
لَمْ يَعْرفُوهَا قَبْلَ ذا منْ جَهْلهم ... أوْلَمْ تَردْ بوَصيَّة الآبَاء!
قَامَتْ قيامَتُهُم وَرُوِّعَ جَمْعُهُم ... وَرَأَوْك مُبْتَدعًا وَذَا إغْوَاء
أَتُريدُ تَبْديلاً لدين شُيوخنَا ... وَطَرِيقَة الْعُظَمَاء والْوُجَهَاء ؟!
وَمَتَى عَرَفتَ هُدَى النَّبى وَدينَه ؟ ... بالأمس كُنْتَ فَتىً مَعَ الجُهَلاء !

فَإذَا أَقَمْتَ عَلَيْهِمُ حُجَجَ الهُدَى ... وَدَمَغْتَ بَاطِلَهُم بِدُون خَفَاء
قَالُوا هَذَاكَ مُنَفِّرٌ وَمُشَدِّدٌ ... وَإِذَا به استَمْسَكْتَ أَنْتَ مُرَائى!
لما أَتَاهُم بِالْهُدَى هَذَا الْفَتَى ... نَفَرُوا نُفُورَ الحُمُر والحَمْقَاء
واستَهْزَءوا بسُلُوكه وبدْيْنه ... وَعَن الْهُدَى فَتَنُوه بالإيذَاء
وَإِنْ رَآوْهُ يَلِينُ أَوْ طَمِعُوا بأَنْ ... يُصْغى لَهُمْ فَتَنُوه بالإغْرَاء
فتَنٌ عَلَى دَرْبِ الْهُدَى تُغْرِى الفَتَى ... وآخِرُهُنَّ لفتْنة السَّرَّاء
فَتَضَايَقَتْ أَخْلاقُه مِنْ حاله ... كَتَضَايق الإيمَان فى الأَهْوَاء
وَجَدَ الدِّرَاسَةَ حَيْثُ كَانَ قُوامُهَا ... أَخْلاطَ سُوء شَاعَ فى الجُلَسَاء
بَذَلَ النَّصِيحَة جَهْرَة وبخُفْية ... لذَويه وَالأَصْحَاب وَالزُّمَلاَء
لا سيَّمَا فى أَهْله وقَرَابَة ... جَهلُوا فَنَادَاهُمْ بِلُطْف نداَء
لكنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الْهُدَى ... لَمَّا أَتَى مِنْ أَصْغَرِ الأبنَاء
بَلْ حَارَبُوهُ بكلِّ أمْر مُنْكَر ... وَرَمَوْهُ بالتَّعْقيد والإعْيَاء
لَمْ يَنْقمُوا منْهُ سوى أَنْ قَالَهَا ... اللّهُ رَبِّى جَهْرتى وَخَفَائى
وأتاهُ ضِيقًا بَعْدَ ضيق فالتجَا ... يَشْكُو إلَى المولَى عَظيمَ بَلاَء
وَيَقُولُ يا رَبَّاهُ عَبْدُكَ مُؤْمنٌ ... إنى لأَخْشَى فتْنَةَ الدَّهْمَاء
إنِّى أَخَافُ منَ الضَّلال وإنَّنى ... أَدْعُوكَ فَاقْبَلْنى وَضَعْفَ دُعَائى
أَنْقذْ غَرِيقًا فى الدُّجَى قَدْ رَاعَهُ ... مَوْجٌ يَهِيجُ وَوَحْشَةُ الظَّلْمَاء
المَوْجُ عَاصفَةُ الضَّلالُ ظَلاَمُهُ ... إنَّ الهُدَى مُتَلَبِّسٌ بخَفَاء
كَيْفَ المقامُ وكَيْفَ لى أنْ أكْتُمَ ... الحَقَّ الصَّرِيحَ لرَهْبَة وَرَجَاء
وَبَيَانُهُ لابدَّ فيه منَ السِّلاح ... العلْم أَفْلَقَ حُجَّةَ الجُهَلاء
أعْنى بذاك أولى الحَديث وحزبَهُ ... العَامِلينَ بهَدْيه الوَضَّاء

هَذِى حِكَايَةُ حَالِ أَصْحَابِ الْهُـ ـدى فى غَمْرة الإِغْرَاء وَالإِغْوَاء
يَاربِّ فَاحْفَظْهُم وَثَبِّتْهُم عَلَى نَصْرِ الْهُدَى والسُّنَّةَ البَيْضَاء
وَارْزُقْهُمُ إِحْيَاءَهَا بِبَصيرة وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا عَلَى الإِحْيَاء
وَاجْعَلْ لَنَا فيهَا نَصيبًا وَافِرًا يَا رَبِّ وانْصُرْنَا عَلَى الأَعْدَاء

فهذا حال الملتزمين بالإسلام ظاهرًا وباطنًا وهم الغرباء الذين بشرهم النبى ﷺ بقوله : « **طُوبَى للغُرَبَاءِ** »[1] .

طرق الشيطان فى إضلال الإنسان :

لو أن إنسانًا مارس عملاً معينًا خمسين عامًا ـ مثلاً ـ لأصبح فيه محنكًا بمداخله وطرقه وخفاياه .

فهذا إبليس ـ عليه لعنة الله ـ من يوم طَرْده من الجَنّة ،حتّى الآن ليس له عمل إلا إضلال الخلق وإغواءهم ، فهذه المدة الطويلةَ ،وتلك الخبرة المديدة ،جعلته يخترع أفانين فى الإغواء والإضلال فمن هذه الحيل :

١ ـ تزيين الباطل :

إن الباطل له صورة قبيحة ورائحة منتنة ، ولذلك يعمد الشيطان إلى هذا الباطل فيغطيه بغطاء جميل ،ويلبسه رداءً حسنًا ، ثم يزينه ويحسنه ، ثم يبدأ فى إغـواء العبد به ، وما علمنا ذلك إلا من قول الشيطان نفسه حين قال لربه : ﴿**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[2] فالتزيين أولاً ، ثم الإغواء .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

ومن مكايده : أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكبده ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذى يضـره ، حتى يُخيل إليَه أنه من أنفع الأشياء ، وينفـر مـن الفعل الذى هـو أنفع الأشياء ، حتى يخيل له أنه يضره .

فلا إله إلا الله ـ كم فتن بهذا السحر من إنسان ؟! وكم حال بين القلب وبين

(١) صحيح : رواه مسلم رقم (١٤٦) فى الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً .
(٢) سورة الحجر الآية (٣٩) .

الإسلام والإيمان والإحسان ؟! وكم جلّى الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة ؟! وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة ؟! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ؟! وكم روَّج من الزغل على العارفين ؟!، فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الأهواء المختلفة، والآراء المتشعبة، وسلك بهم سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم فى المهالك فى مهلك بعد مهلك، وزيَّن لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك فى صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (١) والإعراض عما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منه، والنفاق والإدهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس. أ هـ (٢)

٢ ـ تسمية المعاصى بأسماء محببة :

ومن صور هذا التزيين تسمية الفواحش والمعاصى بأسماء محببة إلى النفوس لكى يخفى خبثها وفحشها، فهو الذى سمَّى الشجرة بشجرة الخلد ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (٣) يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : وقد ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها، فسمّوا الخمر بأم الأفراح (٤)

فَهُم الذين يسمون الرِّبا بالفائدة، ويسمّون التبرج الفاضح بحرية المرأة، ويسمون الاختلاط المستهتر بالتقدم والتمدن، ويسمون المغنية الفاسقة الفاجرة فنانة، ويسمون الممثلة الخليعة بطلة، ويجمعون كل هذا الفسق والفجور والعصيان تحت اسم الفن، كل هذا ليجذبوا قلوب الناس إلى فحشهم وخبثهم .

٣ ـ تسمية الطاعات بأسماء منفرة :

إن الحق تكون عليه مسحة من نور، وتعلوه إشراقة وضاءة، فلو ظل كما هو دون تشويه أو تقبيح لتهافتت إليه النفوس، وصغت إليه الأسماع وركنت إليه القلوب ؛ ولذا

(١) سورة المائدة الآية (١٠٥) . (٢) إغاثة اللهفان (١ / ١١٠) .
(٣)سورة طه الآية (١٢٠) . (٤) إغاثة اللهفان ١ / ١١٢ .

كان دَوْر الشيطان الأول هو تقبيح صورة الحق ، وتشويهها ، وتسميته بأسماء منفرة ، فهو الذى أوحى إلى أوليائه من الكفار من قوم عاد أن يقولوا لنبيهم هود عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

وهو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار مدين أن يقولوا للناس : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

وهو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار قوم فرعون بتسمية موسى وهارون ساحرين : ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ (٣) .

وهو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية رسول الله ﷺ بالساحر ، والكاهن ، والشاعر ، والمسحور ، والمجنون وغيرها من الأسماء المنفرة : ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (٤) ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ نفى كُلَّ ما نُسب إلى رسوله ﷺ من زور وبهتان ، فقال سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

وهو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية أتباع النبى ﷺ بالصابئين .

وما زال الشيطان يسير فى نفس الخطة وبتلك الوسائل حتى زماننا هذا .

فهو الذىأوحى إلى أوليائه بتسمية المتمسكين بهدى النبى ﷺ ، والمستنين بسنته ظاهرًا وباطنًا بالمتطرفين و المتعصبين .

كما يسمون البعد عن المعاصى ودور الفسق والفجور انغلاقًا ، ويسمون الحجاب الشرعى خيمة ، ويسمون المرأة التى التزمت بأمر ربها وجلست فى بيتها رجعية ، ومتخلفة ، كل ذلك من وحى الشيطان إليهم .

(١) سورة الأعراف الآية (٦٦) .
(٢) سورة الأعراف الآية (٩٠) .
(٣) سورة طه الآية (٦٣) .
(٤) سورة الفرقان الآية (٨) .
(٥) سورة الطور الآية (٢٩) .
(٦) الحاقة الآية (٤١ ـ ٤٣) .

ولكن أنادى أهل الحق : لا تجعلوا هذا يَثْنى من عزمكم فتتراجعوا عن سنة نبيكم ، بل ازدادوا تمسكًا وقولوا :

لا تَلْمزُونَا يَا خَفَافِيشَ الدُّجَى ... بتَطَرُّف وتَسَرُّع وتَشَدُّد
لا تَقْذفُونَا بالشُّذُود فَإنَّنَا ... سِرْنَا عَلَى نَهْج الخَلِيل مُحَمَّد
وَلكُلِّ قَوْلٍ نَسْتَدلُ بآيَة ... أوْ بالحديث المسْتَقيم المسْنَد
وَالنَّسْخَ نَعْرِفُ وَالعُمُومَ وَإنَّنَا ... مُتَفَطِّنُونَ لمُطْلَق وَمُقَيَّد
ونُصُوص وَحْى الله نُتْقنُ فَهْمَهَا ... لا تَحْسَبُونَ الْفَهْمَ كَالرَّأى الردَى
وَإذَا تَعَارَضَت النُّصُوصُ فَإنَّنَا ... بأصُول سَادَتنَا الأئمَّة نَهْتَدى

٤ ـ دخوله إلى النفس من أحب الأبواب إليها :

إن عدو الله لا يدخل على النفس إلا من الباب الذى تحبه وتهواه ؛ لأنه بذلك يحقق مرادها وهواها ، فيجد الشيطان من النفس عونًا ، ومن الهوى مددًا .

يقول ابن القيم : « وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجرى منه مجرى الدم ، حتى يصادف نفسه ويخالطه ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عَرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه منَ الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا ، أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يُخْذلُ عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طرَيق مقصده مصدود » أ هـ [١] .

٥ ـ التدرج فى الإضلال :

إن الشيطان لا يأتى الإنسان ويقول له : افعل هذه المعصية أو ارتكب هذه الفاحشة . وإنما يقربه منها خطوة خطوة . وقديمًا قالوا : « نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء » وهنا يقع المحظور ، فلذلك حَذّرنا الله ـ تبارك وتعالى ـ من اتباع خطوات الشيطان فقال : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾** [٢] .

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١١٢) . (٢) سورة النور الآية (٢١) .

فهذا نداء شفقة ورحمة من الرءوف الرحيم إلى عباده ، محذّرًا لهم من اتباع طرق الشيطان ومسالكه . ومُنبهًا على أنه يجب على العبد أن يغلق باب الطريق من أوله كي لا يندرج معه فى الغواية والضلال .

ومن فهم مقاصد الشريعة تبين له ذلك بوضوح فما قاعدة « سد الذرائع » إلا من هذا القبيل ، وكذا تحريم الخلوة بالأجنبية وغض البصر ، فكن متيقظًا أخى المسلم لخطط الشيطان وحبائله .

◉ ويُروى عن وهب بن منبه قال : كان عابد فى بنى إسرائيل ، وكان أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرًا ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها .

قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل - وكان ثقة فى أنفسهم - فأتوه فسألوه : أن يخلفوها عنده ، فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله - عز وجل - منهم ، ومن أختهم .

قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال : أنزلوها فى بيت حيال صومعتى ، قال : فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانًا ، يَنزلُ إليها بالطعام من صومعته ، ثم يأمرها ، فتخرج من بيتها ، فتأخذ ما وضع لها من طعام .

قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعه على باب بيتها ، ولم يكلمها قال : فلبث على هذه الحالة زمانًا .

ثم جاءه إبليس ، فرغبه فى الخير والأجر وحضه عليه ، وقال : لو كنت تمشى إليها بطعامها ، حتى تضعه فى بيتها كان أعظم لأجرك ، قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ، ثم وضعه فى بيتها ، فلبث على ذلك زمانًا .

ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها ، فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، قال : فلم يزل به حتى حدَّثها

زمانًا ، يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها ، فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها ، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها فلبثا زمانًا يتحدثان .

ثم جاءه إبليس ، فرغبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ، ثم جلست قريبًا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها ، فلم يزل حتى فعل ، قال فلبثا زمانًا .

ثم جاءه إبليس ـ عليه لعنة الله ـ فرغبه فى الخير وفيما له عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل ، فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبث ذلك حينًا .

ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت معها البيت فتحدثها ، ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت ، فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها ، فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ، ويسول له حتى وقع عليها ، فأحبها فولدت له غلامًا

فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء إخوة الجارية ، وقد ولدت منك كيف تصنع ؟! لا آمن أن تفتضح أويفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه ، وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ؟! قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفرة مع ابنها وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوى عليها ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث ، بذلك ما يشاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاءوا فسألوا عنها ، فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها ، وقال : كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه ، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها ، فأقاموا

على قبرها أيامًا ، ثم انصرفوا إلى أهاليهم .

فلما جن عليهم الليل ، وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أخته ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان ، وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه أحبل أختكم وولدت له غلامًا فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم ، وألقاها فى حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعًا .

وأتى الأوسط فى منامه فقال له : مثل ذلك ، وأتى أصغرهم فقال له : مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين . مما رأى كل واحد منهم . فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجبًا ، فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى .

فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشىء ، فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم ، قال أصغرهم : والله لا أمضى ، حتى آتى إلى هذا المكان فأنظر فيه . فانطلقوا جميعًا حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ففتحوا الباب ، وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحيْن فى الحفيرة كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما .

فاستدعوا عليه ملكهم ، فأنزل من صومعته وقدم ليُصلب ، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان ، قال له : قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلّصتك مما أنت فيه ، قال : فكفر العابد بالله ، فلما كفر بالله ـ تعالى ـ خلّى الشيطان بينه وبين أصحابه ، فصلبوه [1] .

قال المفسرون : فى هذه وأمثاله نزلت : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [2] .

---

(١) تلبيس إبليس ٢٦ .
(٢) سورة الحشر الآيتان (١٦ ، ١٧) .

هكذا خطّط له الشيطان ودبّر ، حتى نال منه ما يريد ، وما وقع هذا العابد فيما وقع فيه إلا من جهله بمداخل الشيطان وخطواته ، فلو أنه امتنع عليه من أول خطوة لرده خاسئًا .

◉ روى ابن الجوزى بسنده إلى وهب بن منبه قال : كان راهب فى صومعته فى زمن المسيح عليه السلام ، فأراده إبليس فلم يقدر عليه ، فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه ، فأتاه متشبهًا بالمسيح ، فناداه : أيها الراهب أشرفْ علىَّ أكلمك ، قال : انطلق لشأنك فلست أرد ما مضى من عمرى .

فقال أشرف علىَّ فأنا المسيح . فقال : إن كنت المسيح فما لى إليك حاجة ، ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة ، انطلق لشأنك فلا حاجة لى منك ، فانطلق اللعين وتركه [١] .

انظر إلى كلا العابدين : الأول أضله الشيطان بسبب جهله والثانى عُصم من الشيطان بسبب علمه ؛ ولذا قال النبى ﷺ : « **فَضْلُ العَالِم عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أدْنَى رَجُلٍ مِنْ أصْحَابِى** » رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح .

٦ ـ الصد عن الحق :

أخذ الشيطان على نفسه عهدًا ؛ ليضلن بنى آدم ، وليغوينهم أجمعين إلا من اعتصم منهم بالله ـ تعالى ـ وتحصن بحصن الإخلاص ، فذلك لا سبيل للشيطان إليه .

قال تعالى : ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾(الأعراف : ١٦ ، ١٧) .

قال القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ : ﴿**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ أى : بالصدّ عنه ، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك .

قال : والصراط المستقيم هو الطريق إلى الجنة . أ هـ [٣] .

---

(١) تلبيس إبليس ٢٩ .
(٢) صحيح : الترمذي رقم (٢٦٨٦) في العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه علي العبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣) .
(٣) تفسير القرطبى (٧ / ١٧٥) .

قال الحكم بن عتيبة : ﴿ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ : من دنياهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ : من آخرتهم ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ : يعنى حسناتهم ، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ : يعنى سيئاتهم .

قال النحاس : وهذا قول حسن وشرحه : أن معنى ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ : من دنياهم حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ : من آخرتهم حتى يكذبوا بها ، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : فى حسناتهم وأمور دينهم ، ويدل على هذا قوله : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ : يعنى سيئاتهم ، أى يتبعون الشهوات ؛ لأنه يزينها لهم ، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ : أى موحدين طائعين مظهرين الشكر . أ هـ[1] .

وصح عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : ولم يقل من فوقهم ؛ لأنه علم أن الله من فوقهم .

قال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[2] .

قال شقيق : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[3] وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من أخلفه فأقرأ : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4] ، ومن قبل يمينى يأتينى من قبل النساء فأقرأ : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5] ، ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[6] [7] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : السبل التى يسلكها الإنسان أربعة لا غير ، فإنه تارة يأخذ عن جهة يمينه ، وتارة عن شماله ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له ، فإن سلكها فى طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه ، أو يعوقه ويبطئه ، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً

---

(١) تفسير القرطبى (٧/ ١٧٦) .
(٢) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٣) .
(٣) سورة طه آية (٨٢) .
(٤) سورة هود آية (٦) .
(٥) سورة الأعراف الآية (١٢٨) .
(٦) سورة سبأ آية (٥٤) .
(٧) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٤) .

ومعيناً ومُمنيًا ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه هناك أ هـ(١) .

◉ روى الإمام أحمد ، والنسائي من حديث سبرة بن أبي الفاكه : أنه سمع النبي ﷺ يقول : « **إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابن آدَمَ بأطْرُقه ، فَقَعَدَ لَهُ بطَرِيقِ الإسلاَم ، فَقَالَ : أتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وآبَاءِ آبَائكَ ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَم ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ : تُهَاجِرُ ، وتَدَعُ أرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ، وإنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَرِيقِ الجهاد ، فَقَالَ : تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ ـ أي تلف ـ النَّفْسِ وَالمَال ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ المَالُ ، فَعَصَاهُ فَجَاهَد ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللّه أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللّه أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإنْ غَرِقَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللّه أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإنْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ** »(٢) .

٧ ـ إظهار النصح للإنسان :

إن الشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له : افعل كذا من المعاصي ؛ لكي تنال العذاب الأليم ، وإنما يأتيه في صورة الناصح الأمين ، وبهذه الحيلة تَمكّنَ من إغواء أبوينا وإخراجهما من الجنة : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(٣) ولذلك حذرنا الله من هـذه الفتنة وتلك الحيلة قائلا : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ** ﴾(٤)

كما رُوِى عن بعض السلف : أنه قال : إذا جاءك الشيطان في الصلاة ، فقال إنك ترائي فزدها طولاً ، فلا نجاة إلا بمخالفة الشيطان ، ولو أظهر النصح للإنسان .

٨ ـ الاستعانة بشياطين الإنس :

إن من الناس من تخالط بشاشة الإسلام قلبه ، فيقوى إيمانه ، ويعلو يقينه ، ويخالط الإسلام لحمه ودمه ، فلا يسير إلا على هديه ، ولا يستضيء إلا بنوره ، ولا يقتدي إلا برسوله ﷺ فهو ملتزم بالإسلام في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته ، وهذا

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٤) .

(٢) **صحيح** : النسائي (٦ / ٢١ ، ٢٢) في الجهاد ، باب مالمن أسلم وهاجر وجاهد ، ورواه أحمد في المسند (٣ / ٤٨٣) ، وابن حبان في صحيحه (١٦٠١ موارد) وهو في صحيح الجامع (١٦٥٢) . .

(٣) سورة الأعراف الآية (٢١) .

(٤) سورة الأعراف الآية (٢٧) .

الصِّنْف من الناس ــ وهم قليل ــ يأتيهم الشيطان بكل شاردة وواردة فلا يستطيع أن يغويهم ، فبعد ما تعجزه الحيل معهم يستنجد بأوليائه من شياطين الإنس ؛ ليعاونوه في تلك المهمة .

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (1) فنجد الشاب إذا هداه الله للالتزام بالإسلام التزامًا كاملاً والسير على نهج خير الأنام ﷺ جاءته الفتن من كل جانب تكشر عن أنيابها ، فإذا استعصم بحبل الله وصبر وتغلب على شياطين الجن وانتصر عليها ، جاءه أصدقاء السوء وأتراب الفسوق يثبطون من عزيمته ، ويوهنون من قوته في الحق ويقولون له :

ما لك قد حرمت نفسك من متع الحياة ، فلم تعد تنظر إلىٰ الفتيات الجميلات ، ولا تشاهد الأفلام والمسرحيات ، ولا تستمع إلى الفنانين والفنانات ، وتركت الحفلات والسهرات ، وتركت الربا في المعاملات ، وأصبحت تقول هذا حلال وهذا من المحرمات ، إنا نراك قد ضيعت شبابك ، وفاتك كثير من اللذات . .

فقل لهم

إِنِّي أَخَافُ مِنَ الضَّلال وَإِنَّنِي ... أَمْشي عَلَى نَهْجِ الحَبِيبِ مُحَمَّدِ
عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... وَرَغِبتُ فِيمَا عِند رَبِّي الأَمْجَدِ
وَرَغِبتُ عَنْ سُبُلِ الضَّلالة كُلِّهَا ... فَأَنَا بغَيْرِ مُحَمَّدٍ لا أَقْتَدِي
وَأَدْعُوكَ إِلَى هَذَا الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ ... طَرِيقُ الْمجْدِ والْهُدَى والسُّؤْدُدِ

فربما لا يستجيب لك من أول وهلة فقل له :

إِنِّي رَأَيتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لما أَخْشَى
فَكَّرتُ في الدُّنْيَا وَعَالَمِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا تَفْنَى
ولَقَدْ مَرَرتُ عَلَى القُبورِ فَمَا ... مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ والْمولَى

---

(1) سورة الأنعام الآية (١٢١) .

فإن شعرت منه لينًا فزده :

مَنْ كَانَ يعلمُ أنَّ الموْتَ مُدْرِكُهُ ... وَالْقَبْر مَسْكَنُه وَالْبَعْث مَخْرَجُهُ
وَأنَّهُ بَيْنَ جَنَّات سَتُبْهِجُهُ ... يَوْمَ الْقِيَامَة أوْ نَار سَتُنْضِجُهُ
فكُلُّ شَيْء سوَى التَّقْوَى به سَمِجٌ ... وَمَا أقَامَ عَلَيْه منْهُ أسْمَجُهُ
تَرَى الَّذى اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ وَطَنًا ... لَمْ يَدْر أنَّ المنَايَا سَوْفَ تُزْعجُهُ

فإن وجدته أسيرًا لغفلة فذكّره بقولك :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ وَالأمْسُ لَكَ لازمُ
تُسَرُّ بمَا يَفْنَى وتَفْرَحُ بالْمُنَى ... كَمَا سُرَّ باللذَّات فى النَّوْم حَالمُ
وَشُغْلُكَ فيمَا تكْرَهُ غبَّةٌ ... كَذَلكَ فى الدُّنْيَا تَعيْشُ البَهَائمُ

فإن وجدته مغرورًا بفتوته وشبابه فقل له :

نَعَمْ أنْتَ الشُّجَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أنَّ لا بَقَاءَ للإنْسَان
لَيْسَ فيمَا بَدَا لَنَا منْكَ عَيْبٌ ... كَانَ فى النَّاس غَيْرُ أنَّكَ فَان

ثم ذكّره بقولك :

نَسيرُ إلَى الآجَال فى كُلِّ سَاعَة ... وَأيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحل
ولَمْ نَرَ مثْلَ الموْتَ حَقًّا كَأنَّهُ ... إذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأمَانىُّ بَاطل
تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا بزَاد منَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أيَّامٌ تُعَدُّ قَلائل

ثم قل له ناصحًا :

يَا خَادمَ الجسْم كَمْ تَشْقَى بخدْمته ... لتَطْلُبَ الرِّبْحَ ممَّا فيه خُسْرَانُ
أقبلْ عَلَى النَّفْس واسْتَكْملْ فضائلَهَا ... فَأنْتَ بالنَّفْس لا بالجسْم إنْسَانُ

فإن قبل نصحك ، وعمل بقولك فالحمد لله ، وإن أصر على أن يأخذك معه فى طريق الغواية والضلال ، فاحذره فإنه من شياطين الإنس .

قال مــالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن ، وذلك أنى إذا تعوذت بالله ذهـب عنى شيطان الجـن ، وشيطان الإنس يجيئنى فيَجُرُنى إلى المعاصى عيانًا [١] .

فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجـن ، ونسأله سبحانه أن يقينا شرهم ، ويكفينا مكرهم .

* * *

(١) تفسير القرطبى (٧ / ٦٧) .

مداخلُ الشيطان

١ ـ الجهل :

وهو مدخل عظيم من مداخل الشيطان ، ولا نبالغ إذا قلنا بأن كل مداخل الشيطان منه تبدأ ، و عليه تعتمد وبه تقوى ؛ لأن الجاهل لا يعرف مداخل الشيطان فيسدها ، ولا مكائده فيبطلها ، ولا شباكه فيتجنبها . فيجتذبه الشيطان بسهولة ، ويتغلب عليه بأدنى حيلة .

كما أن الجاهل لا يعرف الخير من الشر ، ولا السنة من البدعة ، فربما أوقعه فى الشر وهو يحسب أنه خير ، وربما أوقعه فى البدعة وهو يظنها سنة ، وبهذا يكون من الخاسرين : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١)

والجهل يطمس القلب ويُعمى البصيرة ، ومن هنا يكون الجاهل للشيطان غرضًا فيوجه إليه سهام الشبهات وسموم الشهوات ، فيُرديه قتيل الهوى أسير الشهوة ، فإذا وصل إلى تلك الغاية اتخذه الشيطان جندًا ينشر به الفساد فى الأرض ، ويصد به الناس عن الحق ، وبهذا يصير من حزب الشيطان ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) ولذا قيل :

وَفى الجَهل قَبْل الموت مَوْتٌ لأَهْله ... فَأَجْسَامُهُمْ قَبْل الْقُبُور قُبُورُ
وَإن امرُؤٌ لَمْ يَحْيَى بَالْعلْم مَيتٌ ... فَلَيْس لَهُ حَتَّى النُّشُور نُشُورُ

ومن مداخل الشيطان على الجاهل أنه يصده عن طلب العلم ، ويقول له : أيجمل بك أن تجلس أمام العالم جلسة الطالب وأنت قد كبرت ؟! فيرضى بالجهل .

قال أبو الحسن الماوردى : وربما امتنع الإنسان عن طلب العلم لكبر سنه ، واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره ، فرضى بالجهل أن يكون موسومًا به وآثره على العلم أن يكون مبتدئًا به . وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل ؛ لأن العلم إذا كان

---

(١) سورة الكهف الآية (١٠٣) . (٢) سورة المجادلة الآية (١٩) .

فضيلة فرغبة ذوى الأسنان منه والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولئن يكون شيخًا متعلمًا أولى من أن يكون شيخًا جاهلاً . أ هـ [١] .

وقد قيل : لئن تموت طالبًا للعلم ، خير من أن تعيش قانعًا بالجهل .

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه : اغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محباً ولا تكن الخامس فتهلك .

◉ فإن وَجدَ من الجاهل رغبة فى العلم ، قال له : إن تعلمت العلم ولم تعمل به كان حجة عليك ، فأجمل بك أن لا تتعلمه لكى تخفّ مؤنتك ويقوى عذرك . وما علم المسكين أن العلم هو الذى يكشف عنه تلك الظلم ، ويزيح عنه تلك المحن ، فهو المرشد والمعين ، كما قال أحد العلماء : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله .

وقال رجل لأبى هريرة : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة .

◉ ومن العجب أن الشيطان يخيل لبعض الجهال أنه عالم ، وهذا منتهى التلبيس وقمة الغرور . وقد قسم الخليل بن أحمد الناس من حيث العلم إلى أربعة أقسام فقال : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه .

◉ **وقال أبو القاسم الآمدى :**

إذا كُنت لا تدرى ولـم تكُ بالّذى ... يُسائلُ من يدرى فكيف إذًا تدرى
جَهلْتَ ولَمْ تَعْلَمْ بأنّك جاهلٌ ... فَمَنْ لى بأنْ تَدْرى بأنّكَ لاَ تَدْرى
إذا جئتَ فى كُلِّ الأمُــور بغُمّة ... فكُنْ هكَذَا أرْضًا يدُسك الّذى يَدْرى
ومن أعْجَبِ الأشياء أنّك لاَ تَدْرى ... وأنّك لا تـــدرى بأنّك لاتدرى

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٦ .

ومداخل الشيطان على الجاهل كثيرة لا نستطيع إحصاءها ، ويكفيك أن تعرف أن كل المداخل منها تتفرع .

٢ ـ الغضب :

الغضب من مداخل الشيطان الكبرى ومكائده العظمى ؛ لأن الشيطان يلعب بالغضبان كما يلعب الأطفال بالكرة ، والمشاهدة أكبر دليل على ذلك .

يقول أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ : « يتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستوى على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بها ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه مثل الكهف الذي اضطرمت فيه نار فاسود جَوّه وحمى مستقره وامتلأت بالدخان جوانبه ، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظًا .

◉ ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر : تغير اللون وشدة ارتعاد الأطراف ، وخروج الأفعــال عــن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته ؛ لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، هذا أثره فى الجسد .

◉ وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام ، الذى يستحيى منه ذو العقل ، ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مــع تخبط النظـم واضطراب اللفظ .

◉ وأما أثره على الأعضاء فالضرب ، والتهجم ، والتمزيق ، والقتل ، والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب ، وعجز عن التشفى رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوبه ، ولطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ، وقد يضرب الجمادات ويتعاطى أفعال المجانين .

◉ أما أثره فى القلب مع المغضوب عليه فالحقد، والحسد ، وإضمار السوء ، والشماتة بالمسآت ، والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر وهتك الستر ، والاستهزاء ، وغير ذلك من القبائح أ هـ ملخصًا .[1] .

(١) الإحياء (٦٤٣) .

وكلما فتر الغضب أثاره الشيطان بمثل قوله : هو مستهزئ بك ، لابد أن تنتقم ، وغير ذلك مما يثير الغضب ، ومن هنا وجب على المسلم العاقل أن يغلب شيطانه ويكظم غيظه ويلتمس العذر لغيره .

◉ روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر على قوم يصطرعون فقال : « **مَا هَذَا ؟** » قالوا : فلان ما يصارع أحدًا إلا صرعه . . قال : « **أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ ؟ رَجُلٌ كَلَّمَهُ رَجُلٌ فَكَظَمَ غَيْظَهُ فَغَلَبَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَه وَغَلَبَ شَيْطَانَ صَاحِبه** » قال الحافظ : سنده حسن [١] .

فالقوة الحقيقية هي التحكم في النفس عند الغضب ، فلا ينطق بسوء ولا يتلفظ بفحش ، ولا يمضي غيظه . كما قال النبي ﷺ : « **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرعَة ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ** » . متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٢] .

و (الصُّرَعة) بضم الصاد وفتح الراء : الذي يصرع الناس ويغلبهم ، وهو المقصود هنا . « وأما الصُّرْعة » بسكون الراء فهو الضعيف الذي يصرعه الناس ويغلبونه .

ولذلك رغب النبي ﷺ في كظم الغيظ وترك الغضب ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رجل لرسول الله ﷺ : دُلني على عمل يدخلني الجنة . قال رسول الله ﷺ : « **لاَ تَغْضَبْ وَلَكَ الجَنَّةُ** » [٣] .

◉ وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ؟ قال : « **لاَ تَغْضَبْ** » فردد مرارًا قال : « **لاَ تَغْضَبْ** » [٤] رواه البخاري وزاد أحمد في رواية : قال الرجل : ففكرت حين قال النبي ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله .

◉ وعن عبد الله بن عمرو قال : سأل رجل رسول الله ﷺ : ما ذا يباعدني من غضب الله ؟ قال ﷺ : « **لاَ تَغْضَبْ** » قال الحافظ العراقي : رواه الطبراني في مكارم الأخلاق ، وابن عبد البر في التمهيد ، بإسناد حسن [٥] .

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٥١٩) .

(٢) **متفق عليه**: البخاري رقم (٦١١٤) في الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم رقم (٢٦٠٩) في البر والصلة ، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب .

(٣) **صحيح**: قال الحافظ المنذري رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح [الترغيب : ٥ / ١١٥] وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٧٤) وعزاه لابن أبي الدنيا والطبراني .

(٤) **البخاري**: رقم (٦١١٦) في الأدب ، باب الحذر من الغضب ، والترمذي (٢٠٢١) في البر والصلة ، باب : ما جاء في كثرة الغضب ، ومالك في الموطأ (٢ / ٩٠٦) في حسن الخلق وأحمد في المسند (٢ / ٣٦٢ ، ٤٦٦) .

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد في المسند (٢ / ١٧٥) وفيه ابن لهيعه وهو لين الحديث وبقية رجاله ثقات وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٤٧٤٧) .

ولا يمكن لآدمى معتدل الخُلُق أن يتخلى عن غريزة الغضب التى عليها جُبل وبها طبع ، ولكن عليه أن يقطع الآثار المهيجة للغضب كعزة النفس والكبر وغير ذلك .

قال على بن زيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فقال عمر : أردت أن يستفزنى الشيطان لعزة السلطان ؛ فأنال منك اليوم ما تناله منى غداً ، انصرف رحمك الله (١) .

تسكين الغضب : فإذا غضب فعليه أن يُسكِن غضبه ، ويهدئ من ثورته ، وذلك بعدة أمور :

الأول : أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فعن سليمان بن صُرد رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبى ﷺ فجعل أحدهما يغضب ، ويحمر وجهه ، وتنتفخ أوداجه ، فنظر إليه النبى ﷺ فقال : « **إِنِّى لأَعْلَمُ كَلِمَــةً لَوْ قَالَهَا ، لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** » . فقام إلى الرجل ممن سمع النبى ﷺ فقال : هل تدرى ما قال رسول الله ﷺ آنفا ؟ قال : لا . قال : « **إِنِّى لأَعْلَمُ كَلِمَــةً لَوْ قَالَهَا ، لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** » فقال الرجل : أمجنون ترانى ؟! (٢) .

الثانى : أن يتذكر ثواب كظم الغيظ وأجره العظيم فيكظم غيظه رغبة فيما عند الله تعالى ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ** » (٣) . رواه ابن ماجه قال المنذرى ورواته محتج بهم فى الصحيح .

◉ وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه كلهم من طريق عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَــاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِــنَ الحُــورِ العِينِ مَا شَاءَ** » (٤) .

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٣٣ .

(٢) **متفــق عليه** : البخاري رقم (٦٠٤٨) في الأدب ، باب : ما ينهي مــن السباب واللعن ، ومسلــم رقــم (٢٦١٠) في البر والصلة ، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب .

(٣) **صحيح** : ابن ماجة رقم (٤١٨٩) في الزهد ، باب الحلم . قال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات : وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة .

(٤) **حــسن** أبو داود (٤٧٧٧) في الأدب ، باب : من كظم غيظاً ، الترمذي (٢٠٢١) في البر والصلة ، وابن ماجة (٤١٨٦) في الزهد ، وأخرجه أحمد في المسند (٣ / ٤٣٨) وحسنه الألبـاني في صحيح الجامع (٦٥١٨) .

الثالث : أن يسكت ؛ لأنه يكون أقرب إلى الخطأ فى هذه الحالة فالسكوت أسلم كما قيل :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إجَابتِه السُّكُوتُ
سَكَتُّ عَنِ السَّفِيه فَظَنَّ أَنِّى ... عَيِيتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيِيتُ

◉ وقال ﷺ : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِن باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أوْ لِيَصْمُتْ** » (١) .

وروى أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس مرفوعًا « **إذَا غضبَ أحَدُكُمْ فلْيسْكُتْ** » (٢) .

الرابع : أن يجلس ، أو يضطجع ، لما رواه أحمد وأبو داود وابن حبان ، عن أبى ذر مرفوعًا : « **إذَا غَضِبَ أحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِس ، فَإنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ ، وإلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ** » (٣) .

الخامس : أن يتفكر فى قبح منظره عند الغضب فإن هذا مما يسكنه . أما أحاديث الوضوء عند الغضب فلا يصح منها شىء ، فيما أعلم .

السادس : أن يتذكر جزاء الصفح وثوابه عند الله - تعالى - فيدفعه ذلك إلى تحمل جهل الجاهل وسفه السفيه ، ابتغاء مرضات الله ، وما عنده من الثواب العظيم .

◉ قال تعالى فى صفة المتقين : ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (٤) فالمسلم عندما يكظم غيظه يضع نفسه فى عداد المتقين ، فإذا عفا وسامح ارتفع إلى درجة المحسنين .

◉ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فى قول الله تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله ، وخضع لهم عدوهم ذكره البخارى تعليقًا مجزومًا به (٥) .

---

(١) متفق عليه : البخاري (٦٠١٩) في الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومسلم رقم (٤٨) في الإيمان ، باب الحث علي إكرام الجار .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (١ / ٢٣٩) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر وهو في صحيح الجامع (٦٩٣) .

(٣) صحيح : أبو داود (٤٧٨٢) في الادب ، باب ما يقال عند الغضب ، ابن حبان في صحيحه (١٩٧٣ موارد) ، وأخرجه أحمد في المسند (٥ / ١٥٢) وهو في صحيح الجامع (٦٩٣) .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٣٤) .

(٥) رواه البخارى - كتاب التفسير - سورة فصلت .

◉ ورُوى عن الحسن البصرى : أنه قال : من علامات المسلم : قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم ، وكَيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنىً ، وتحمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وصبر فى شدة ، ولا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقتصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى رخاء .

السابع : أن يتَرَفع بنفسه عن السباب ، والقذف ، واللعن ، والشتم ؛ لأن ذلك من صفات السفيه .

كما روى عن سلمان أنه قال لمّا شتمه رجل : إن خفَّت موازينى فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول .

ورُوى أن رجلاً سبّ أبا بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : ما ستر الله عنك أكثر .

ورُوى أن امرأة قالت لمالك بن دينار : يا مراء فقال : ما عرفنى غيرك .

وروى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ما عادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث : إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

فأخذه الخليل فنظمه شعرًا :

سأُلْزم نفْسى الصّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذنب ... وإنْ كثُرتْ منْهُ إلىَّ الْجـــرائمُ
فمـــا النّاسُ إلا واحدٌ مـــنْ ثلاثة ... شريفٌ ومشْرُوفٌ ومثْلٌ مُقــاومُ
فأمّا الّذى فوْقى فأعْرفُ قدْرهُ ... وأتبعُ فيه الْحـــقّ والحقُّ لازمُ
وأمّا الّذى دُونى فــأَحْلُمُ دائبًا ... أصُونُ به عرْضى وإنْ لام لائمُ
وأمّا الّذى مثْلى فــإنْ زلّ أوْ هفــا ... تفضّلْتُ ، إنّ الْفضْل بالْفخر حَاكمُ

وقال بعضهم :

وفى الحلْمِ ردْعٌ للسّفيه عنِ الأذى ... وفى الخـــرق إغْراءٌ فلا تكُ أخْرقًا

فتنْدم إذْ لا ينْفعُكَ نَدامَــــةٌ　　كما ندم الْمغْبُونُ لَمّا تَفَـــرَّقا

وقال غيره :

أحبُّ مكارمَ الأخْلاق جهْدى　　وأكْـــــرهُ أنْ أعيبَ وأنْ أعــابَا
وأصْفحُ عــنْ سباب النّاس حلْمًا　　وشـــرُّ النّاس مــــنْ يهْــوى السِّبابَا
ومَنْ هاب الرِّجال تهيّبُوهُ　　ومـنْ حَقرَ الرِّجالَ فَلَنْ يُهابَا

واعلم أن الغضب نوعان : إما أن يكـون الغضب للنفس وهذا مذموم ، وقد تقدم بيانه ،وإما أن يكون لله وهـذا محمود بل مندوب فقد كان النبى ﷺ وهو الرءوف الرحيم - إذا ما رأى مخالفة شرعية غضــب ،واحمــرَّ وجه ،ولم يسكت ،حتى يغيرهـــا .

فعن عــائشة - رضى الله عنها - قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي بيتى قرام - أي ستر - فيه صورة فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ثم قال : « **مِنْ أشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الذينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصّوَرَ** » (١) .

◉ ورأى رســول الله ﷺ فى قبـلة المسجـد نخامة فحكــها بيده وتغيـظ وقــال : **إنَّ أحَدَكُمْ إذَا كَــانَ فِي الصَّلاَةِ ، فَـــإنَّ اللهَ حِيَالَ وَجْهِـــهِ ، فَــلاَ يَتَنَخَّمَنَّ حِيَالَ وَجْهِهِ فِي الصَّــلاَةِ** » (٢) ومـن هنـا يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كــان يغـضب إذا انتُهكت حرمات الله .

٣ - حب الدنيا :

لقد زين الشيطان الدنيا وزخرفها فى قلوب كثير من الناس ، فركنوا إليها واطمأنوا بها ، بل وعضُّوا عليها بنواجذهم ،ونشبوا فيها أظفارهم ،ففيها يعادون ،وعليها يتنافسون ، ومن أجلها يتباغضون ويتحاسدون ، ونفذ فيهم إبليس خطته حيث قال : ﴿ **لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (٣) ويا أسفاه لقد اتبعــوه وأطاعــوه إلا مــن

(١) **متفق عليه** : البخاري رقم (٦١٠٩) في الادب ، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ، ومسلم (٢١٠٧) في اللباس والزينة ، باب تحريم تصوير صورة الحيوان .
(٢) **متفق عليه**: البخاري (٦١١١) في الادب ، باب ما يجوز من الغضب ، ومسلم رقم (٥٤٧) في المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد .
(٣) سورة الحجر الآية (٣٩) .

اعتصم بالله ولجأ إليه ، ورمى الدنيا خلف ظهره : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ولو عرف الناس حقيقة الدنيا ما أقاموا لها وزنًا ، ولا جعلوا لها فى قلوبهم مكانًا ، ولا على ألسنتهم ذكرًا ، والله خالقها قد بيّن حقيقتها فقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢) .

فالحياة لعب ولهو وزينة ، والعاقل من جعلها مزرعة للآخرة ، ولذلك نادانا الله تعالى بعد هذه الآية قائلا : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٣) ، وكما حذرنا الله من الدنيا حذرنا منها رسول الله ﷺ أيضاً .

◉ فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتقوا الدّنْيَا ، واتقُوا النِّسَاءِ** »(٤) .

◉ وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ** » (٥) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا** »(٦) وفى رواية : « **كَفَافًا** » رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وابن ماجه

◉ وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٠) .

(٢) سورة الحديد الآية (٢٠) .

(٣) سورة الحديد الآية (٢١) .

(٤) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٢٧٤٢) في الذكر والدعاء ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء .

(٥) **صحيح** : رواه مسلم رقم (١٠٥٤) في الزكاة ، باب الكفاف والقناعة ، والترمذي رقم (٢٣٤٩) في الزهد ، باب ما جاء في الكفاف ، وابن ماجة (٤١٣٨) في الزهد ، باب القناعة ، ورواه أحمد في المسند (٢/ ١٦٨ ، ١٧٢) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٣) .

(٦) **متفق عليه** : البخاري (٦٤٦٠) في الرقاق ، باب : كيف كان يعيش النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسلم (١٠٥٥) في الزكاة ، باب : في الكفاف والقناعة .

قال : « **يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالي ، مَالي ، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟** » (١) .

◉ وعن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق ، والناس كَنَفَيْه ، فَمرَّ بجدى أسك مَيّت ، فتناوله بأذنه ، ثم قال : « **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ؟** » فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : « **أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟** » قالوا : والله لو كان حيّاً لكان عيبًا فيه ؛ لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟! فقال : « **فَوَ اللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ ـ عَزّ وَجَل ـ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ** » (٢) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلعُونٌ مَا فِيهَا ، إلاَّ ذِكْرِ اللهِ وَمَا وَالاَهُ ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ** » (٣) رواه ابن ماجه والبيهقى والترمذى .

◉ وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **فَوَاللَّه مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ** » (٤) . رواه البخارى ومسلم .

ولقد طغى حب الدنيا فى قلوب بعض الناس حتى عبدوها من دون الله !!

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **تَعسَ عَبْدُ الدِّينَار ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ ، إنْ أُعْطِى رَضِىَ ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ** » (٥) .

ولو عرفوا قيمتها بالنسبة للآخرة لرفضوها وطلبوا الآخرة .

---

(١) رواه مسلم : رقم (٢٩٥٨) في الزهد في فاتحته .

(٢) رواه مسلم : رقم (٢٩٥٧) في الزهد في فاتحته ، وورواه أحمد في المسند (٣ / ٣٦٥) .

(٣) حسن : الترمذي (٢٣٢٢) في الزهد ، باب : ما جاء في هوان الدنيا ، وابن ماجه (٤١١٢) في الزهد ، باب مثل الدنيا وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤) .

(٤) متفق عليه : البخاري (٣١٥٨) في الجزية والموادعة ، باب : الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ومسلم رقم (٢٩٦١) في الزهد في فاتحته .

(٥) صحيح : رواه البخارى رقم (٢٨٨٧) في الجهاد والسير ، باب : الحراسة في الغزو في سبيل الله .

◉ فقد قال رسـول الله ﷺ : « **مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ** » . وأشار يحيى بن يحيى بالسبَّابة ، « **فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ يَرْجِعُ ؟** » (١) .

◉ وفى صحيح البخـارى عـن سهـل رضي الله عنه قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « **مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيرٌ ، مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** » (٢) .

◉ **ورُوى عن الحسن البصرى أنه قال** : رحم الله أقوامًا ، كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافًا .

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ : من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره . ورُوى عن على رضي الله عنه أنه قال : من جَمَعَ فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا ، ولا عن النار مهربًا : من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشَّيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها

وقال أيضًا فى وصف الدنيا : هى دارٌ من صح فيها سقم ، ومن أمنَ فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها الحساب ، وفى حرامها العقاب .

وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همُّ الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هَمّ الدنيا من قلبك .

وقال الحسن : والله لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذَهبتْ إلى ذا أو ذهبت إلى ذا .

وقال بعضهم : يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كأن منفعته إلى غيرك .

---

(١) صحيح : رواه مسلم رقم (٢٨٥٨) في الجنة ، باب : فناء الدنيا .

(٢) صحيح : رواه البخارى رقم (٦٤١٥) في الرقاق ، باب : مثل الدنيا في الآخرة ، وروى آخره مسلم رقم (١٨٨٠) في الإمارة ، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله .

وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : إنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة .

وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حبِّ الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضًا ، ولا ينهى بعضنا بعضًا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعْرى ! أى عذاب الله ينزل علينا .

وقال الشافعى رحمة الله عليه : الدنيا دار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارضَ برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك ظل زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عملك ، واقصر من أملك .

وقال على ـ رضى الله عنه ـ : أوصيكم بتقوى الله ، والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقًا وكأنهم قد قطعوه ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها ؛ فإنه ، إلى انقطاع ، ولا تمرحوا لمتاعها ونعمائها ؛ فإنها إلى زوال ، عجيب لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه .

وقد قيل :

نَسِيرُ إِلَى الآجَالِ فِى كُلِّ لَحْظَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تَمْضِى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِىُّ بَاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِى زَمَنِ الصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَاغِلُ
تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلائِلُ

وقال الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ :

اغْتَنِمْ فى الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةْ
كَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةْ (١)

وقيل أيضًا :

ألا إنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلامَ نَائِمٍ وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لاَ يَكُونُ بِدَائِمِ
تَأَمَّلْ إذَا مَا نِلْتَ بِالأَمْسِ لَذَّةً فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أنْتَ إلا كَحَالِمِ!

واعلم أن حب الدنيا إذا طغى على القلب فتح للشيطان بابًا آخر ألا وهو :

٤ ـ طول الأمل :

فإن العبد إذا طال أمله سوَّف فى عمله ، وعمَّر دنياه ، وخرَّب أخراه .

◉ قال أبو هريرة ﷺ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لاَ يَزَالُ قَلبُ الكَبِيرِ شَابًا فِى اثْنَتَيْنِ : فِى حُبِّ الدُّنْيَا ، وَطُولِ الأمل** » (٢) .

قال البخارى : قال على بن أبى طالب : ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنُون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حساب ولا عمل هكذا رواه معلقًا (٣) .

وقد قيل :

إنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِى منَ الأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا فَإنَّمَا الرِّبْحُ وَالخُسْرَانُ فِى الْعَمَلِ

وقيل أيضًا :

مَضَى أمْسُكَ المَاضِى شَهِيدًا مُعَدَّلا وَأعْقَبَهُ يَوْمٌ عَلَيْكَ جَدِيدُ
فَإنْ كُنْتَ بِالأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إسَاءَةً فَثَنِّ بِإحْسَانٍ وَأنْتَ حَمِيدُ
فَيَوْمُكَ إنْ أعْقَبْتَهُ عَادَ نَفْعُهُ عَلَيْكَ وَمَاضِى الأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ

(١) انظر هدى السارى ٤٨١ .
(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٤٢٠) في الرقاق ، باب من بلغ ستين سنة ، ومسلم رقم (١٠٤٦) في الزكاة ، باب كراهة الحرص على الدنيا .
(٣) فتح البارى (١١ / ٢٣٥) .

وَلا تُرجِ [١] فِعْلَ الْخَيْرِ يَوْمًا إِلَى غَدٍ لَعَلَّ غَدًا يأتى ، وَأَنْتَ فَقيدُ

وقال الحسن البصرى : نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك ، وكذلك ليلتك .

وقال الجاحظ : وُجد مكتوبًا فى حجر : يا ابن آدم ، لو أريت يسير ما بقى من أجلك لزهدت فى طويل ما ترجو من أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدًا ندمك لو قد زلّت بك قدمك ، أسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب [٢] .

وقال بعضهم :

أَلا إِنَّمـــا مَقيلٌ لـِـرَاكِبٍ قَضَى وَطَرًا مِنْ مَنْزِلٍ ثُمَّ هَجَرا

فَرَاحَ وَلاَ يَدْرِى عَلاَمَ قُدُومُهُ؟ أَلا كُلُّ مَا قَدَّمْتَ يَبْقَى مَوْفُورا

وعن عبد اللَّه بن عمر ـ رضى اللَّه عنهما ـ قال : أخذ رسول اللَّه ﷺ بمنكبى ، فقال : « **كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك [٣] .

ففى هذا الحديث بين لنا رسول اللَّه ﷺ أن المسلم فى الدنيا غريب عن وطنه الأصلى ، ألا وهو الجنة التى أخرج أبوه آدم منها فلابد أن يجتهد ليعود إليه .

وفى هذا المعنى يقول ابن القيم ـ رحمه اللَّه :

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَـــا مَنَازِلُكَ الأولَى وَفِيهَا الْمُخْيَمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْىُ الْعَدوِ فَهَلْ تُرَى نَعُـــودُ إِلَى أَوْطَـانِنا وَنَسْلَمُ

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الغَرِيبَ إِذَا نَأى وَشَطَّتْ به أَوْطَـانُهُ فَهْوَ مَغْرَمُ

وَأَىُّ اغْتِرَابٍ فَـــوْقَ غُرْبَتِنَــا الَّتِى لَهَا أَضْحَتِ الأَعْدَاءُ فِينَا تُحَكَّمُ [٤]

(١) الإرجاء : التأخير .
(٢) أدب الدنيا والدين ١٠٢ .
(٣) رواه البخارى : رقم (٦٤١٦) في الرقاق ، باب قول النبي ﷺ « كن في الدنيا كأنك غريب ... » .
(٤) حادى الأرواح (٨) .

وكان عطاء السُلمى يقول فى دعائه : اللَّهم ارحم فى الدنيا غربتى ، وارحم فى القبر وحشتى ، وارحم موقفى غداً بين يديك .

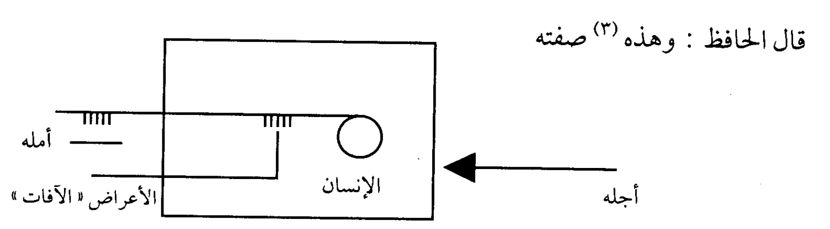
وقال بعضهم :

سَبِيلُكَ فى الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِر ... وَلاَبُدَّ مِنْ زَادٍ لكُلِّ مُسَافِرِ
وَلاَ بُدَّ للإِنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُدَّةٍ ... وَلا سِيَّمَا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وروى الحاكم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لرجل وهو يعظه : « **اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هرمكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سقمكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفراغكَ قَبْلَ شُغْلكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتكَ** » . قال الحافظ : وأخرجه ابن المبارك فى الزهد بسند صحيح ، من مرسل عمرو بن ميمون [1] .

وهذا رسول اللَّه ﷺ بينَّ للصحابة قصَر أجل الإنسان ، مع طول أمله مستعينًا فى ذلك بالرسم الهندسى . ففى صحيح البخارى [2] عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطاً مربعاً ، وخط خطاً فى الوسط خارجًا منه ، وخط خُطُطًا صغارًا إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط ، وقال : « **هَذَا الإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ به ـ أوَ قَد أَحَاطَ به ـ وَهَذَا الذى هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهَذِه الخطط الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ ، فإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا** » .

قال الحافظ : وهذه [3] صفته



فإياك أخى المسلم وطولَ الأمل ، فإنه يورث سوءَ العمل ، بل ويفتح للشيطان بابًا آخر ألا وهو :

---

(١) فتح البارى (١١ / ٢٣٥) وهو فى صحيح الجامع : برقم (١٠٧٧) .
(٢) صحيح :رواه البخارى رقم (٦٤١٧) في الرقاق ، باب : في الأمل وطوله .
(٣) فتح البارى (١١ / ٢٣٧) .

٥ ـ الحرص :

والحــرص مفسدة للدين أى مفسدة ؟! ، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه : أن رسول اللّه ﷺ قال : « **مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِى غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ** » [١] رواه الترمذى وقال : حسن صحيح وصححه ابن حبان .

◉ وعــن كعب بن عياض رضي الله عنه قــال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً ، وَفِتْنَةُ أُمتى الْمَالُ** » [٢] .

◉ وقد قيل :

حَتَّى مَتَى أَنَا فى حل وترْحَال — وَطُــــول سَعْى وَإِدْبَار وَإِقْبَال
وَنَازِحُ الــدَّار لا أَبْقِيكَ مُغْتَرِبًا — عَــن الأحبَّة لاَ يَدْرُونَ مَا حَالى
بمَشْرَق الأَرْض طَـوْرًا ثُمَّ مَغْربها — لاَ يَخْطُر الموتُ منْ حرْصى عَلَى بَالى
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانى الرِّزْقُ فى دَعَة — إنَّ القَنُوعَ الغنَى لاَ كَثْرَةُ المَــال

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » [٣] .

◉ قال القرطبى [٤] : معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس ، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفّت عن المطامع فعزت ، وعظمت ، وحصل لها من الحظوة ، والنزاهة ، والشرف ، والمدح أكثر من الغنى الذى يناله من يكون فقير النفس ؛ لحــرصه فإنه يُورطـه فى رذائل الأمور ، وخسائس الأفعال ، لدناءة همته وبخله ، ويكثر من يذمه من الناس ، ويَصْغُر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير ،

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٦٧) في الزهد ، باب : (٤٣) ، ورواه أحمد في المسند (٣/ ٤٥٦ ، ٤٦٠) وهو في صحيح الجامع (٥٦٢٠) .

(٢) صحيح: الترمذي (٢٣٣٦) في الزهد ، باب : ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال ، ورواه أحمد في المسند (٤ / ١٦٠) ، الحاكم في المستدرك (٤ / ٣١٨) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥٩٢) .

(٣) متفق عليه: البخاري رقم (٦٤٤٦) في الرقاق ، باب : الغني غني النفس ، ومسلم رقم (١٠٥١) في الزكاة ، باب ليس الغني عن كثرة العرض .

(٤) القرطبى هذا هو صاحب المفهم فى شرح صحيح مسلم ، وهو شيخ القرطبى صاحب التفسير .

وأذل من كل ذليل ، والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعًا بما رزقه اللَّه ، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة ، ولا يلح فى الطلب ولا يلحف فى السؤال ، بل يرضى بما قسم اللَّه له ، فكأنه واجد أبدًا ، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أُعْطى ، بل هو أبدًا فى طلب الازدياد من أى وجه أمكنه ، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسفَ ، فكأنه فقير من المال ؛ لأنه لم يستغنَ بما أعطى ، فكأنه ليس بغنى . ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء اللَّه - تعالى - والتسليم لأمره ، علمًا بأن الذى عند اللَّه خير وأبقى فهو معرض عن الحرص والطلب ، وما أحسن قول القائل :

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ ... فَإِنْ زَادَ شيئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فقْرًا

أ هـ (١)

وقد قيل :

أَرَاكَ يَزِيدُكَ الإِثْرَاءُ حِرْصًا ... عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لاَ تَمُوتُ

فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْمًا ... إِلَيهَا قُلْتَ : حَسْبِى قَدْ رَضِيتُ

فإياك أخى المسلم والحرص ؛ فإنه يذهب الدين والشرف معًا ، ويفتح للشيطان بابًا آخر ألا وهو :

٦ - البخل :

قال تعالى :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) . فالشيطان يخوف الإنسان من الفقر لكى لا ينفق مما فى يده فى سبيل اللَّه ويخيل إليه أنه إذا أنفق افتقر واحتاج ، ولكن اللَّه يُطمئن كل مؤمن موقن ، بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ مبينًا أن فضل اللّه لا منتهى له ، ورزق اللّه لا حد له ، وخزائنه ملأى لا تنفد أبدًا .

(١) فتح البارى (١١ / ٢٧٢) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٨) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ آتَاهُ اللّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَاله يومَ القيامَة شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبتَان ، يُطَوقُهُ يَوْمَ القيامَة ،ثُمَّ يَأخُذُ بِلِهزِمَتَيْه – يَعْنى بِشدْقَيْه – ثُمّ يَقُولُ : أَنا مَالُكَ ، أَنا كَنْزُكَ » ثُمَّ تلاَ النَّبِيُّ ﷺ هَذه الآية : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِه هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِه يَوْمَ الْقِيَامَة وَلِلَّه مِيرَاثُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(آل عمران : ١٨٠) (١) .

ولقد بيّن اللّه – تبارك وتعالى – أن الفوز والفلاح فى ترك البخل والشح فقال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيه إلاَّ مَلَكَانِ ينزلاَن ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٢) .

◉ وعنه أيضًا أن رسول اللّه ﷺ قال : « قَالَ اللّهُ تَعَالى : يَا عَبْدى أَنْفقْ أُنْفقْ عَلَيْكَ . وَقَالَ : يَدُ اللَّه مَلأى لاَ تَغيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا بِيَدِه ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَبِيَدِه المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ » (٣) رواه البخارى ومسلم .

◉ وعن أبى أمامةَ رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « يَا ابْنَ آدَم إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى » (٤) .

◉ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « أَيكُمْ مَالُ وَارِثِه أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَاله ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللّه ، مَا منَّا أَحَدٌ إلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْه منْ مَال وَارثه ، قَالَ : « فَإِنَّ

---

(١) صحيح : رواه البخارى رقم (١٤٠٣) في الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة .

(٢) متفق عليه : البخاري رقم (١٤٤٢) في الزكاة ، باب : قول الله تعالي : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتقَى » ، ومسلم رقم (١٠١٠) في الزكاة ، باب : في المنفق والممسك .

(٣) متفق عليه : البخاري رقم (٤٦٨٤) في تفسير قوله تعالي : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَي الْمَاءِ » ، ومسلم رقم (٩٩٣) فى الزكاة ، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف .

(٤) صحيح : رواه مسلم رقم (١٠٣٦) في الزكاة ، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلي .

مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ »[١] رواه البخارى .

◉ وعن عبد اللّه بن عمر : أن رسول اللّه ﷺ قال : « **لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَينِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُو يُنْفِقُ مِنْهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ** »[٢] .

والمراد بالحسد هنا الغبطة : وهى تمنّى مثل ذلك ، وهذا لا بأس به ، بل ربما يكون طاعة ، أما الحسد المذموم فهو تمنّى زوال النعمة وهو حرام .

◉ وعن عائشة ـ رضى اللّه تعالى عنها ـ أن النبى ﷺ قال : « **إذَا أنْفَقَت المَرْأةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا أجْرُهَا بِمَا أنْفَقَتْ ، ولِزَوْجِهَا أجْرُهُ ،ولِلخَادِمِ مِثْلُ ذلِكَ ، لاَ يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ مِنْ أجْرِ بَعْضٍ شَيْئًا** »[٣] .

٧ ـ الكبر :

الكبر من مداخل الشيطان ، وبه يستذل الإنسان ، ويحمله على رد الحق ، والإصرار على الباطل ، والمتكبر جاهل لا يعرف حقيقة نفسه ولا حقيقة ربه ؛ لأنه لو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنه كان نطفة تشمئز منها النفس ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم كان مولودًا صغيرًا ضعيفًا فعلام التكبر ؟!

◉ ولما كان الكبر داءً مهلكًا ، حذَّر اللّه ـ تعالى ـ منه ، فقال سبحانه : ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾[٤] . وقال أيضًا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** ﴾[٥] .

◉ وقال : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾[٦] . وقال :

(١) صحيح : رواه البخارى رقم (٦٤٤٢) في الرقاق ، باب : ما قدم من ماله فهو له .
(٢) متفق عليه : البخاري رقم (٥٠٢٥) في فضائل القرآن ، باب : اغتباط صاحب القرآن ، مسلم رقم (٨١٥) في صلاة المسافرين ، باب : فضل من يقوم بالقرآن .
(٣) متفق عليه : البخاري رقم (٢٠٦٥) في البيوع ، باب : قول الله تعالي : « **أنفقوا من طيبات ما كسبتم** » ومسلم رقم (١٠٢٤) في الزكاة ، باب : أجر الخازن الأمين .
(٤) سورة الإسراء الآية (٣٧) .
(٥) سورة النساء الآية (٣٦) .
(٦) سورة الأعراف الآية (١٤٦) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (١) والآيات فى ذلك كثيرة .

◉ وحذر النبى ﷺ من الكبر أيضًا وبين أن عاقبته وخيمة فقال : « **لاَ يَدْخُلُ الجَنّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ** » (٢) .

◉ وقال النبى ﷺ قال اللَّه تعالى : « **العِزّ إزَارِى ، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِى ، فَمَنْ نَازَعَنِى شَيْئاً مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ** » (٣) . رواه مسلم .

◉ وعـن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **ألاَ أخْبِرُكُمْ بأَهْلِ النَّارِ ؟! كُلّ عُتُل جَوَّاظ مُسْتَكْبِرٍ** » (٤) متفق عليه . و (**العُتُل**) : هو الغليظ الجافى ، و (**الجَوَّاظ**) : هو الضخم المختال فى مشيته .

◉ وعن أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **احْتَجَّت الجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتْ النّارُ : يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ وَالمتُكَبرونَ ، وَقَالت الجَنَّةُ : يَدْخُلُنِي الضعَفَاءُ وَ المَسَاكِينُ ، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا : إنَّكِ الجَنَّةُ رَحْمَتِى أرْحَمُ بِكَ مَنْ أشَاءُ ، وَإنَّكِ النَّارُ عَذَابِى أعذّبُ بِك مَنْ أشَاءُ وَلِكُلّ وَاحَدة مِنْكُمَا مِلؤُهَا** » (٥) . رواه مسلم .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَـوْمَ القيامَـة ، وَلا يزكّيهِمْ وَلاَ ينظرُ إلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ** » (٦) رواه مسلم ، والعائل هو الفقير .

◉ وعن ابن عمر - رضى اللَّه عنهما - أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَجُرُّ إزَارَهُ مِنَ الخُيَلاَءِ خُسِفَ به ،وَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِى الأرْضِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ** » (٧) . رواه البخارى والنَّسائى . و (**الخُيَلاَء**) : هو الكبر والعجب ، و (**يتَجَلْجَلُ**) : أى يغوص وينزل فيها .

---

(١) سورة غافر الآية (٣٥) .

(٢) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٩١) في الإيمان ، باب : تحريم الكبر .

(٣) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٢٦٢٠) في البر والصلة ، باب : تحريم الكبر .

(٤) **متفق عليه** : البخاري رقم (٤٩١٨) في التفسير ، باب : « **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** » ، ومسلم رقم (٢٨٥٣) في الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون .

(٥) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٢٨٤٦) في الجنة وصفة نعيمها .

(٦) **صحيح** : رواه مسلم رقم (١٠٧) في الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم إسبال الإزار .

(٧) **صحيح** : رواه البخارى رقم (٣٤٨٥) في أحاديث الأنبياء ، باب : ٥٤ ، والنسائي : (٨/ ٢٠٦) .

◉ وعنه أيضًا أن النبي ﷺ قال : « **مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ** » (١)

◉ وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ـ رضي اللّه عنهما ـ أن النبي ﷺ قال : « **مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ، أَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ** » رواه أحمد ، والبيهقى فى الشعب ، وقال الحافظ العراقى : إسناده صحيح (٢) .

◉ وقال رسول اللّه ﷺ : « **يخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ ، وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ ، يَقُولُ : وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ : بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، وَبِالْمُصَوِّرِين** » (٣) .

◉ **وقال الحسن البصرى ـ رحمه اللّه ـ** : العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات .

◉ **وقال النعمان بن بشير على المنبر** : إن للشيطان مصالي وفخوخًا ، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم اللّه ، والفخر بإعطاء اللّه ، والكبر على عباد اللّه ، واتباع الهوى فى غير ذات اللّه .

◉ **ورُوى** أن مطرف بن عبد اللّه بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبى صفرة ، وعليه حُلة يسحبها ، ويمشى الخيلاء ، فقال : يا أبا عبد اللّه ، ما هذه المشية التى يبغضها اللّه ورسوله ؟ فقال المهلب : أما تعرفنى ؟! فقال : بل أعرفك ، أوَّلُكَ نطفة مذرة ، وآخرُكَ جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة ، فترك المهلب مشيته هذه .

فأخذ ابن عوف هذا الكلام ونظمه شعرًا فقال :

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِه وكَانَ بالأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَة
وَفِى غَدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِه يَصِيرُ فِى اللحْدِ جِيفَةً قَذِرةَ

(١) متفق عليه : البخاري (٣٦٦٥) في فضائل الصحابة ، باب : قول النبي صلي الله عليه وسلم « لو كنت متخذ خليلاً » ومسلم رقم (٢٠٨٥) في اللباس والزينة ، باب : كراهة ما زاد علي الحاجة .

(٢) حسن : أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٢١٥) بسند رجاله ثقات . وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣ / ١٠٦ / ح ٢٩٠٩) . .

(٣) صحيح : الترمذي رقم (٢٥٧٤) في صفة جهنم ، باب : ما جاء في صفة النار ، وأخرجه أحمد في المسند (٢ / ٣٣٦) بسند صحيح ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥١٢) .

وَهْـوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذْرَةَ(١)

وعن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن إذ مَرَّ علينا ابن الأهتم ، يريد المقصورة ، وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة ، فقال : أف! أف! شامخ بأنفه ثانى عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه ، أى حميق أنت ، تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير مأخوذ بأمر اللَّه فيها ، ولا المؤدى حق اللَّه منها ، وفى كل عضو من أعضائك لله نعمة ، وللشيطان به لفتة ، فسمع ابن الأهتم ، فرجع يعتذر إليه ، فقال : لا تعتذر إلَيَّ ، وتب إلى ربك ، أما سمعت قول اللَّه ـ تعالى ـ : **﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾** (٢) .

أنواع المتكبرين :

١ ـ من الناس من يتكبر بملكه أو مكانته الاجتماعية ، ويقوى هذا الكبر ، ويعظمه كثرة ومديح المتقربين ، وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبًا ، والتملق خديعة وملعبًا فيمدحونه بما ليس فيه ، ويرفعونه فوق شأنه ومرتبته ، فيظن ذلك حقًا فيزداد كبرًا .

وقد قيل : عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه ، كيف يفرح ؟! ولمن قيل فيه الشر وليس فيه ، كيف يغضب ؟!

وقال الشاعر :

يَا جَاهِلا غَرَّهُ إِفْرَاطُ مَادِحِه لا يَغْلِبنَّ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمُكَ بك
أَثْنَى وَقَالَ بِلا عِلْمٍ أَحَاطَ بِه وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَحْصُـولِ مِنْ رِيبك

وهذا النوع من الكبر منتشر فى الملوك والرؤساء ، ولذلك يجب عليهم أن يبعدوا عنهم بطانة السوء التى تزين لهم سوء أفعالهم ولا تبين لهم قبيح أعمالهم فترديهم وتهلكهم . وهؤلاء الملوك لو عقلوا لعلموا أن المُلك أيام لا تدوم ، ولو دام لغيرهم ما وصل إليهم : **﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن**

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٠١ .
(١) سورة الإسراء الآية (٣٧) .

تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) فلا يبقى لهم إلا السيرة الحسنة أو السيئة .

٢ ـ ومن الناس من يتكبر بماله وهذا مغفل جاهل ؛ لأنه لو كان عاقلاً لعلم أن المال عارية يمكن أن يأخذه اللَّه فى أى وقت ، وبأى سبب ، كصاحب الجنة الذى دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا ، فأرسل اللَّه ـ تعالى ـ على جنته حسبانًا من السماء فتركها خاوية على عروشها .

وكقارون الذى تكبر بماله الذى كثر ، حتى إن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها سبعة من الرجال الأقوياء ، فخسف اللَّه تبارك وتعالى به الأرض هو وماله ، فكانت عاقبته الخسران المبين . . . ولو أن اللَّه ابتلى ذلك الغنى بمرض لتمنى أن يؤخذ منه ماله كله وترد إليه صحته .

كما رُوى أن ملكًا من ملوك المسلمين طلب كوبًا من ماء ليشرب فجاءه الخادم بالكوب ، وقال له : أيها الملك لا تشرب حتى أسألك سؤالاً . قال : سل ، قال : إذا مُنع منك هذا الكوب فبكم تشتريه ؟! قال الملك : بنصف ملكى . قال : فإذا شربته ووقف فى مثانتك فلم ينزل ، فكم تدفع حتى تنزله ؟! قال : ملكى كله . قال : إذًا فملكك لا يساوى بولة واحدة .

٣ ـ ومن الناس من يتكبر بقوته وصحته ، وهذا رجل غافل ؛ لأن القوة ليست هى مقياس الشرف بين الناس ، وهل قوة هذا الرجل تكافئ قوة حمار أو بغل ؟!

ولو كانت القوة هى المقياس لاستحق الحمار أن يكون مديراً ، والبغل أن يكون وزيرًا ، والفيل أن يكون رئيسًا . ولكن المدار على العقل ، فبه يصل الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه ، وبه يسير الإنسان فى الناس سيرًا حسنًا . وهو الذى يجنب صاحبه المضار والمهالك ، وقد نُسب إلى على بن أبى طالب رضي الله عنه الأبيات الآتية :

إنَّ المكارمَ أخْلاقٌ مُطَهَّرَةٌ ... فَالْعَقْلُ أولُهَا وَالدِّينُ ثَانيهَا
وَالعِلْمُ ثَالِثُهَا والْحِلْمُ رَابِعُهَا ... والجُودُ خَامِسُهَا والْعُرْفُ سَادِسُهَا

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٦) .

وَالبرُّ سَابعُهَا وَالصبرُّ ثَامنُهَا ... وَالشُكْرُ تَاسعُهَا واللِّينُ عَاشرُهَا (١)

فانظر ـ هداك اللَّه ـ إنه لم يَعُد القوة والفتوة من المكارم ؛ لأنها لا تكون مفخرة إلا إذا استخدمت فى الخير والصلاح .

◉ وقد رُوى أن أبا حنيفة ـ رحمه اللَّه ـ كان يلقى على تلامذته درس فقه وكان مادًا رجليه ، فدخل المسجد رَجلٌ حسَن الهيئة ، فارع الطول ، وأتى حلقة أبى حنيفة ليستمع ، فضم أبو حنيفة رجليه احترامًا للقادم ، وظل يُلقى درسه ، حتى وصل إلى قوله : وقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من السماء فقال : هذا الرجل : يا شيخ أرأيت إن لم تغرب الشمس ؟ فقال أبو حنيفة : الآن آن لأبى حنيفة أن يمد رجليه .

وقد قيل :

يَزينُ الفَتَى فى النَّاسِ صحَةُ عَقْله ... وَإنْ كَانَ مَحْظُوراً عَلَيْه مكَاسبُه

يَشين الفَتَى فى النَّاسِ قـلَّةُ عَقْله ... وَإنْ كَرمَتْ أعْرَافُهُ وَمَنَاسبه

يَعيشُ الفَتَى فى النَّاسِ بالْعَقْلِ إنَّهُ ... عَلَى العَقْلِ يَجْرى علْمُهُ وتَجَاربُه

وَأفْضَلُ قَسْمِ اللَّه للْمَرء عَقْلَهُ ... فَليْس من الأشْيَاء شَيءٌ يُقَاربُه

إذا أكْمَلَ الرّحْمَنُ للمرء عَقْلهُ ... فقد كَمُلَت أخلاقُهُ ومآربُه(٢)

٤ ـ ومن الناس من يتكبر بعلمه ، وهذا أجدر به أن يُسمى جاهلاً ؛ لأن العلم إن لم يزد صاحبه تواضعًا وخشية فليس بعلم نافع . فالعلم علمان : علم على اللسان ، وعلم فى القلب ، فأما العلم الذى على اللسان فهو حجة اللَّه على خلقه ، وأما الذى فى القلب : فهو الخشية .

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبى ـ ﷺ ـ يقول : « **يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ ، فتَنَدْلِقُ أقْتَابُهُ** (٣)**، فَيَدُورُ بها كَمَا يَدُورُ الحمَارُ برحَاهُ ، فَيَجتمعُ أَهْلُ النَّارِ**

---

(١) أدب الدنيا والدين ١١ .

(٢) أدب الدنيا والدين ٣ .

(٣) أقتابه : أمعاؤه .

عَلَيْه ، فَيَقُولُونَ : أىْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَست كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » [١] متفق عليه .

وكيف يُسمى الرجل عالما وبه آفة الكبر وقد قيل :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلا لنَفْسكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيم
تَصفُ الدَّواءَ لِـذى السِّقَام وَذى ... الضَّنَى كَيْمَا يَصحَّ به وَأَنْتَ سَقيم
ابْدَأْ بنَفْسكَ فَانْهِهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَـإذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حكيم
فَهُنَاكَ تُعْذَرُ إنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بالْقَـوْل منْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيم
لاَ تَنْهَ عَـنْ خُلُق وَتَأْتى مثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظيم

٥ ـ ومن الناس من يتكبر بجماله وحسن صورته ، وهذا أكثر ما يكون فى النساء ، ولو عقلت المتكبرة بجمالها لعلمت أن الجمال من نصيب الدود ، ولو تخيلت صورتها فى القبر بعدما أكل الدود لحومها وعينها ومنخرها ، لرأت منظراً مُرعبًا مُخيفًا ، بل إن الجمال فى الدنيا مُعرَّض للآفات والأمراض ، فكم من مرض ترك الجميلة شوهاء والفاتنة نكراء ؟! فينفر منها الناس بعدما كانوا يتلهفون على رؤيتها .

وقد قيل :

يَا مُظْهِـر الْكبْر إعْجَـابًا بصُورَته ... انْظُر خَـلاكَ فَـإنَّ النَّتْنَ تَثْرِيبُ
لَـوْ فَكَّـر النَّاسُ فيمَا فى بُطُونهم ... مَا اسْتَشْعَرَ الْكبْرَ شُبَّانٌ وَلاَ شيبُ
هَلْ فى ابن آدمَ مثْلُ الرَّأْس مكْرُمَةٌ ... وَهْوَ بخَمْس منَ الأَقْذار مَضْرُوبُ
أَنْفٌ يَسيلُ وَأُذْنٌ ريحُهَا سَـهكٌ ... وَالْعَيْنُ مُرْفَضَةٌ وَالثَّغْرُ مَلْعُوبُ
يَا ابنَ التُّرَاب وَمَأْكُول التُّرَاب غَدًا ... أَقْصرْ فَإنَّكَ مَأكُولٌ وَمَشْرُوبُ [٢]

مظاهر الكبر :

١ ـ رد الحق : من مظاهر الكبر أن الإنسان الذى يتبين له خطؤه ولا يرجع إلى الحق ولا يقبله ، إنما يكون الدافع الوحيد له على ذلك هو الكبر ، فكم من شيخ كبير أو عالم مشهور ناقشه تلميذ صغير فى مسألة وتبين له خطؤه ، ولكنه لم يرجع إلى الحق أَنَفَةً

---

(١) متفق عليه : البخاري رقم (٣٢٦٧) في بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقه ، ومسلم رقم (٢٩٨٩) في الزهد ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله .
(٢) أدب الدنيا والدين ٢١٢ .

وكبرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما قيل :

لَكِنَّهُم لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الْهُدَى لَمَّا أَتَى مِــــنْ أَصْغَرِ الأَبْنَاء
بَلْ حَارَبُوهُ بِكُلِّ أَمْـــرٍ مُنْكَرٍ وَرَمَوْهُ بِالتَّعْقِيدِ وَالإِعْيَاءِ

هذا فى كثير من علماء زماننا ، أما علماء السلف رحمهم الله فقد كانوا يقبلون الحق أينما كان ، فهذا أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يقول : تعلمت نسك الحلق من الحلاق . وهذا الإمام مالك يرجع إلى قول تلميذه الصغير محمد بن إدريس الشافعى فى مسألة من مسائل الطلاق .

٢ـ ومن مظاهر الكبر أيضًا : احتقار الناس وازدراؤهم والتعالى عليهم ولقد جمع النبى ـ ﷺ ـ مظاهر الكبر فى قوله : « **الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس** » (١) .

ولما كان الكبر من مداخل الشيطان ومكايده فلا يمكن التخلص من هذه المكيدة إلا بالتواضع .

◉ عن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ ، وَلاَ يَبْغِي أحَدٌ عَلَى أحَدٍ** » . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه (٢) .

◉ وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ للّهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ** » رواه مسلم والترمذى (٣) .

٨ـ حب المدح :

اعلم أخى المسلم أنك إذا أحببت المدح فقد دخل عليك الشيطان من باب العُجْب وهو داء مهلك ، هذا إن كنت تُمْدَحُ بما فيك ويمكن التخلص منه بأن تتذكر عيوبك وذنوبك ، فما من إنسان إلا وله عيوب خفية كما قال أحد الصالحين لرجل مدحه : لو أن للذنوب ريحًا ما استطاع أحد أن يقترب منى .

(١) صحيح رواه مسلم رقم (٩١) في الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، وأبو داود رقم (٤٠٩١) في الأدب ، والترمذي (١٩٩٨) في البر والصلة ، باب ما جاء في الكبر .

(٢) صحيح : رواه مسلم رقم (٢٨٦٥) في الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ، وأبو داود (٤٨٩٥) في الأدب ، وابن ماجه (٤٢١٤) في الزهد .

(٣) صحيح : رواه مسلم رقم (٢٥٨٨) في البر والصلة ، باب : استحباب العفو والتواضع ، والترمذي (٢٠٢٩) في البر والصلة ، باب : ما جاء في التواضع ، ورواه أحمد في المسند (٢ / ٢٣٥ ، ٣٨٦) .

أما إذا كان المدح بما ليس فيك فالفرح بذلك جنون .

قال بعض الحكماء : من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه .

وقال ابن المقفع : قابل المدح كمادح نفسه (١) .

وقد قيل :

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يَمْدَحَ المرْءُ نَفْسَهُ ... وَلَكِنَّ أعْمَالا تُذَمُّ وَتُمْدَحُ
وَمَا كُلُّ حين يَصْدُقُ المرءُ ظَنَّهُ ... وَلاَ كُلُّ أصْحَاب التِّجَارَة يَرْبَحُ
وَلا كُلُّ مَنْ تَرْجُو لِغَيْبكَ حَافظا ... وَلاَ كُلُّ مَنْ ضَمَّ الْوَديعَةَ يَصْلُحُ (٢)

◉ واعلم أن للمدح آفات كثيرة : منها أنه يُحْدث كبرًا وإعجابًا فى الممدوح وهذا مهلك للممدوح ، فعن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - قال : سمع النبى - ﷺ - رجلاً يُثْنى على رجل ويطريه فى المدحة فقال : « **أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل** » (٣) متفق عليه واللفظ للبخارى فقد بين النبى - ﷺ - أن المدح مهلكة .

◉ وعن أبى بكر - رضي الله عنه - أن رجلاً ذُكرَ عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا ، فقال النبى - ﷺ - : « **وَيْحَكْ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبكَ** - يقول مرارًا - **إنْ كَانَ أحَدُكُمْ مَادحًا أخَاهُ لاَ مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ : أحْسَبُ فُلاَنًا واللّهُ حَسيبُهُ ولاَ أزَكِّي عَلَي اللّهِ أحَداً أحْسَبُهُ كَذَا وكَذا، إنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلكَ منْهُ** » (٤) متفق عليه .

◉ **ومن آفات المدح** : أنه يعمى الممدوح عن عيوبه ، فلا يشمر للتفتيش عنها .

◉ **ومن آفاته أيضًا** : أن الممدوح يظن نفسه خيرًا فلا يجتهد فى الإكثار من الطاعات ولذلك يقول زياد بن أبى مسلم : ما من أحد يسمع ثناء عليه أو مدحه إلا تراءى له الشيطان .

وقال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكّن الشيطان من أن يدخل فى باطنه .

---

(١) أداب الدنيا والدين ٢١٣ .

(٢) السابق ٢١٤ .

(٣) **متفق عليه** : البخاري (٢٦٦٣) في الشهادات ، باب : ما يكره من الإطناب في المدح ، ومسلم رقم (٣٠٠١) في الزهد ، باب : النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط

(٤) **متفق عليه** : البخاري (٢٦٦٢) في الشهادات ، باب : إذا زكي رجل رجلاً كفاه ، ومسلم (٣٠٠٠) في الزهد ، باب : النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط .

وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعْمَ الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل .

ولذلك قال عمر بن الخطاب : « **إيَّاكُمْ وَالْمَدْحَ فَإِنَّه الذَّبْحُ** » (١)وروى مرفوعًا من حديث معاوية ، أخرجه أحمد ، وابن ماجه وقال فى الزوائد إسناده حسن

قال أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ : اعلم أن للناس أربعة أحوال بالنسبة إلى الذام والمادح .

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر عليه ويغضب من الذم ، ويحقد على الذام ويعاقبه .

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن معاقبته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان ، ولكن بالإضافة إلى ما قبله كمال .

والحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تغمه المذمة ، ولا تسره المدحة .

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة . أن يكره المدح ويمقت المادح ؛ إذ يعلم أنه فتنة له قاصمة لظهره مضرة له فى الدين ، ويحب الذام ؛ إذ يعلم أنه مُهْدٍ إليه عيوبه ومرشده إلى ذنوبه أ هـ . ملخصًا (٢) .

ولهذا وغيره أمر النبى ـ ﷺ ـ بحثو التراب فى وجوه المداحين ،فقد رأى المقداد ـ رضى الله عنه ـ رجلا يمدح عثمان ـ رضي الله عنه ـ فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ، فجعل يحثو فى وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ماشأنك ؟! فقال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ ، فَاحْثُوا فِي وَجُوهِهِمُ التُّرابَ** » (٣) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة مرفوعاً رقم (٣٧٤٣) في الأدب ، باب : المدح ، ورواه أحمد في المسند (٤ / ٩٢) بإسناد حسن لأجل معبد الجهني قال الحافظ في التقريب (٦٧٧٧) : صدوق مُبْتَدع وهو أول من أظهر القدر بالبصرة .

(٢) الإحياء ١٨٥٧ .

(٣) صحيح : رواه مسلم رقم (٣٠٠٢) في الزهد ، باب : النهي عن المدح ، أبو داود (٤٨٠٤) في الأدب ، والترمذي (٢٣٩٣) في الزهد ، وابن ماجة (٣٧٤٢) في الأدب .

٩ـ الرياء :

إن الرياء باب فسيح من الأبواب التى يلج الشيطان منها إلى قلب الإنسان ولذلك يجب على المسلم الذى يريد اللَّه والدار الآخرة أن يمحص فى قلبه ، فإن وجد فيه التفاتًا لغير اللَّه سارع بعلاجه ، وأن يفتش فى أعماله فإن وجد فيها شبهة من رياء طهرها ، ولما كان الرياء هو التفات القلب لغير اللَّه وترك مراعاة الخالق مع مراعاة المخلوقين سُمى شركًا أصغر .

فقد قال النبى ـ ﷺ ـ: « **إنّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَيْكُمْ ، الشِّرْكُ الأصْغَرُ** » قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه ؟ قال : « **الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذَا جَزَى النَّاسَ بأعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إلى الذين كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاء ؟!** »(١)

وأنواع الرياء كثيرة : فمن الناس من يرائى بعلمه ، ومنهم من يرائى بعبادته ، وكذلك من يرائى بصدقته ، ومثال ذلك ما رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول اللَّه ـ ﷺ يقول : « **إن أول الناس يُقْضَى يَوْمَ القيامة عَلَيْه نعمَهُ، رَجُلٌ استُشْهِدَ فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نعَمَه فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فيكَ حَتّى اسْتُشْهِدتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكنّكَ قَاتَلْتَ ؛ لأنْ يُقَالَ : جَرِىءٌ . فَقَدْ قيل ، ثُمَّ أمر به فَسُحِبَ عَلَى وَجْهه ،حَتّى أُلقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وَعَلّمَهُ وَقَرأَ القُرْآنَ ، فَأُتِي به فَعَرَّفَهُ نعمَه فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا فَعَلْتَ فِيها ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ العلمَ ، وَعَلّمْتُهُ ، وَقَرأت فيك القُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكنّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أمرَ به فَسُحِبَ عَلَى وَجْهه ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسّعَ اللَّهُ عَلَيْه وَأعْطَاهُ مِنْ أصْنَافِ المَالِ ، فَأُتِيَ به فَعَرّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيل تُحبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلاّ أنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَاد ، فَقَدْ قِيلِ ، ثُمّ أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ ، حَتَّى أُلْقِى فى النَّارِ** »(٢).

◉ وعن أبى هند الدارى ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبى ـ ﷺ ـ يقول : « **مَنْ قَامَ مَقَامَ رِيَاءٍ**

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد في المسند (٥ / ٤٢٨) وقال الهيثمي (١٠ / ١٠٢) : رجال أحمد رجال الصحيح وقال المنذري (١ / ٦٨) : رواه أحمد بإسناد جيد ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الزهد ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٢٠ / ح ٣٢) .

(٢) **صحيح** : رواه مسلم رقم (١٩٠٥) في الجهاد ، باب : من قاتل للرياء و السمعة استحق النار .

وَسُمْعَةٍ رَاءى اللَّهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَسَمَّعَ »[١] قال الحافظ المنذرى : رواه أحمد بإسناد جيد .

◉ وفي الصحيحين من حديث جندب أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ**[٢] **اللَّهُ بِهِ وَمَنْ يُرَائِى يُرَائِى اللَّهُ بِهِ** »[٣] .

ولذلك كان السلف الصالح ـ رضى اللَّه عنهم ـ يُخفون طاعاتهم ، كما يُخفى الناس معاصيهم وعيوبهم .

واعلم أن الدافع على الرياء هو الطمع فى مدح الناس وخوف مذمتهم .

ويمكن التخلص من الرياء بالأمور الآتية :

١ ـ أن تعلم أن مدح الناس لا ينفعك إن كنت عند اللَّه مذمومًا ، وذمهم لا يضرك إن كنت عند اللَّه محمودًا .

٢ ـ أن تعلم أن المخلوق الضعيف الذى تطلب مدحه لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا خاصة يوم فقرك الأكبر وحاجتك العظمى .

٣ ـ أن تعلم أن الرياء يُحبط العمل ، وربما حوَّله إلى كفة السيئات .

٤ ـ إن كنت تخشى اطلاع الناس على خبث باطنك وسواد قلبك فى الدنيا ، فاللَّه تعالى مطلع على ذلك ، وسيفضحك يوم القيامة أمام الجمع الأكبر وعلى رءوس الأشهاد .

٥ ـ إذا خطر عليك خاطر من الرياء فلتقم بمدافعته والتخلص منه ، ثم الالتفات إلى اللَّه بقلبك .

◉ واعلم أن الشيطان يدعوك أولاً لترك العمل ، فإن عجز دعاك إلى الرياء فيه ، فإن وجد منك إخلاصًا قال لك هذا العمل ليس خالصًا وأنت مراء ، وتعبك ضائع حتى يحملك على ترك العمل فانتبه ـ حفظك اللَّه ـ ولا تطع الشيطان فإنه عدو مضل مبين .

◉ **يقول الغزالى ـ رحمه اللَّه ـ** : والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب :

(١) صحيح : رواه أحمد في المسند (٥ / ٢٦٩) بسند رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١١٧ / ٢٤) .

(٢) سَمَّعَ : معناه من أظهر عمله للناس رياء ، أظهر الله نيته الفاسدة في عمله وفضحه يوم القيامة

(٣) متفق عليه : البخاري رقم (٦٤٩٩) في الرقاق ، باب : الرياء والسمعة ، ومسلم رقم (٢٩٨٧) في الزهد ، باب : من أشرك في عمله غير الله .

الأولى : أن يرد على الشيطان ويُكذبه ، ولا يقتصر عليه ،بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه ؛لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة اللَّه وعن الخير الذى هو بصدده ،وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك .

الثانية: أن يعرف أن الجـدال والقتال نقصان فى السلوك فيقتصر عـلى تكذيبه ودفعه ، ولا يشتغل بمجادلته .

الثالثة : ألا يشتغل بتكذيبه أيضًا ؛ لأن ذلك وقفة وإن قَلَّت ، بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبًا للكراهية غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة .

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده فيعزم على أنه كلما نزغ الشيطان زاد هو فى الإخلاص والاشتغال باللَّه وإخفاء الصدقة والعبادة غيظًا للشيطان .

◉ يرُوى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانًا يذكرك ـ أى بسوء ـ فقال : واللَّه لأغيظنَّ من أَمَرَهُ . قيل ومَنْ أمرَه ؟ قال : الشيطان . ثم قال : اللَّهم اغفر له .

وإذا عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة أن يزيد فى حسناته .

قال : وضرب الحارث المحاسبى لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسًا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشدًا ، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره .

فلما مرَّ الثانى عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع فى نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ،ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع . ومرَّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . ومرَّ الرابع فلم يتوقف وأراد أن يغيظه فترك التأنى وأسرع فى المشى ، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير [1] .

---

(١) الإحياء (١٨٩٦) .

ولهذا كان كثير من السلف إذا ألهاهم الشيطان عن طاعة فعلوها مضاعفة غيظًا للشيطان .

◉ **وقال إبراهيم التيمى** : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الإثم فلا يطعه ، وليحدث عند ذلك خيرًا فإذا رآه كذلك تركه .

الرياء والأجر :

اعلم ـ هداك اللَّه ـ أن الرياء إما أن يدخل فى أصل العمل أو فى أوصافه ، فإن دخل فى أصل العمل ، يعنى كان هو الدافع والباعث عليه بَطَلَ بالإجماع .

وإن دخل الرياء فى أوصاف العمل كطول فى ركوع أو سجود ، ففيه قولان أحدهما : يبطله ، والآخر : لا يبطله ولكن ينقص من أجره .

١٠ ـ العُجْب :

العُجْب يختلف عن الكبر ، فالكبر له ثلاثة أركان : متكبر ، ومتكبر به ، ومتكبر عليه ، والعُجْب ليس له إلا ركنان اثنان : معجب ومعجب به فقط ، ولكن العُجْب هو الدرجة الأولى فى سلم الكبر فنعوذ باللَّه منهما .

والعُجْب هو استعظام النعمة والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم .

◉ **والعُجْب أنواع** : فمن الناس من يعجب بصحته وقوته وتناسب أعضائه وحسن صورته ، فليعلم أن ذلك من نصيب الدود وأن كل من عليها فان .

ومن الناس من يعجب بعقله وفطنته واستكشافه لبطائن الأمور الدينية والدنيوية ، وثمرة هذا العجب أن تجده مستبدًا برأيه مستجهلاً لغيره مُعْرضًا عن سماع آراء الآخرين . فليفكر هذا العاقل فيما لو ابتلاه اللَّه بمرض فى دماغه لجنَّ عقله ، وطار لبُه ، وذهب فكره ، فليحمد اللَّه على العافية وليشكره على النعمة .

ومن الناس من يعجب بنسبه ويظن أنه ناج لا محالة ، أليس هو ابن فلان المنسب من الحسن أو الحسين ؟ فليعلم هذا الغافل أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وأن النبى ـ ﷺ ـ نادى أقرب الناس إليه « **يَا فَاطِمَةُ : اعْمَلِى ، فَإِنّى لاَ أغْنِى عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** » متفق عليه [1] .

---

(١) **متفق عليه**: البخاري رقم (٢٧٥٣) في الوصايا ، باب : هل يدخل النساء والولد في الأقارب، ومسلم رقم (٢٠٦) في الإيمان ، باب : قوله تعالي : « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين** » .

ومن الناس من يعجب بكثرة أولاده وأهله وعشيرته وهذا يكفيه قول اللَّه تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [١] فأى عجب بمن يتركك فى أشد أحوالك ! ويهرب منك فى أحرج أوقاتك !

ومن الناس من يعجب بماله وغناه فليقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ ، وقول رسوله ـ ﷺ ـ: « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » متفق عليه [٢] .

ومن الناس من يعجب بعبادته ، وهذا إنما أوتى جهله ، لأنه لا يدرى أقُبلت عبادته أم لا ؟

وقال مسروق ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : كفى بالمرء علمًا أن يخشى اللَّه ، وكفى بالمرء جهلا أن يُعجب بعمله [٣] .

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك ، ومن صلاح عملك أن ترفض عجبك ، ومن صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك .

وقال مُطرف بن عبد اللَّه ـ رحمه اللَّه ـ : لأنْ أبيت نائمًا وأصبح نادمًا ، أحب إلى من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا .

وروى عن عائشة ـ رضى اللَّه عنها ـ أن رجلاً سألها فقال : متى أعلم أنى محسن ؟ قالت : إذا علمت أنك مسىء . قال : ومتى أعلم أنى مسىء ؟ قالت : إذا علمت أنك محسن .

وقال البخارى : قال ابن أبى مُليكة : أدركت ثلاثين من صحابة رسول اللَّه ـ ﷺ ـ : كلهم يخاف النفاق على نفسه [٤] .

قال أبو الليث السمرقندى ـ رحمه اللَّه ـ : من أراد أن يكسر العجب ، فعليه بأربعة أشياء :

---

(٢) سورة عبس الآية (٣٤ : ٣٧) .

(٢) **متفق عليه** : البخاري رقم (٥٧٨٩ ، ٥٧٩٠) في اللباس ، باب : من جر ثوبه من الخلاء ، مسلم رقم (٢٠٨٨) في اللباس والزينة ، باب : تحريم التبختر في المشي .

(٣) رواه الدارمي (١ / ٩٣) .

(٤) **صحيح البخاري** : كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

أولها : أن يرى التوفيق من اللَّه تعالى ، فإذا رأى التوفيق من اللَّه ـ تعالى ـ فإنه يشتغل بالشكر ولا يعجب بنفسه .

والثانى : أن ينظر إلى النعماء التى أنعم اللَّه بها عليه ، فإذا نظر فى نعمائه اشتغل بالشكر عليها واستقل عمله ولم يعجب به .

والثالث : أن يخاف أن لا يتقبل منه ، فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه .

والرابع : أن ينظر فى ذنوبه التى أذنب قبل ذلك ، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قلَّ عجبه ، وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدرى ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة ؟! وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب . أهـ [١] .

١١ ـ الجزع والهلع :

إن الجزع من مراكب الشيطان التى يحمل بها الإنسان فى بحـار الخيالات والأوهـام ، حتى يكبه فى محيط الحيرة والأحزان .

أما المؤمن فإنه يركب مراكب الصبر ، ويخوض بها فى بحار الرضا والتسليم ، حتى يصل إلى محيط الفرج وهناك سيجدُ بَرَّ الأمان .

أما عـن أسباب الجزع فيقول أبو الحسن الماوردى : منها تذكُّر المصاب حتى لا يتناساه ، وتصوره حتى يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : لا تستفزوا الدموع بالتذكر .

وقال الشاعر : ولا يبعث الأحزان مثل التذكُّر .

◉ ومنها الأسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفًا ، ولا يجد لمفقوده بدلاً ، فيزداد بالأسف ولهًا ، وبالحسرة هلعًا ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [٢] .

وقال بعض الشعراء :

---

(١) تنبية الغافلين (٢٥٢) .

(٢) سورة الحديد الآية (٢٣) .

إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ باللّه وَارْضَ بِــه ... إِنَّ الَّذِى يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللّهُ
إِذَا قَضَى اللّهُ فَاسْتَسْلم لِقُدْرَته ... مَا لامْرِئ حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللّهُ
الْيَأسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِه ... لا تَيْأَسَنَّ فَــإِنَّ الصَّانِعَ اللّهُ

◉ ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع ، فقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً** ﴾ (١) إنه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث .

◉ وحكى عن كعب الأحبار أنه مكتوب فى التوراة : من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه .

◉ وحكى أن أعرابية دخلت من البادية ، فسمعت صُراخًا فى دار ، فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسان ، فقالت : ما أراهم إلا من ربهم يستغيثُون ، وبقضائه يتبرمون ، وعن ثوابه يرغبون .

وقد قيل فى منثور الحكم : من ضاق قلبه اتسع لسانه .

وأنشد بعض أهل العلم :

لا تُكْثِرِ الشَّكْوَى إِلَى صَدِيق ... وَارْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ لا الْمَخْلُوق
لا يُخْــرِجُ الْغَرِيقُ بِالْغَرِيق

وقال بعضهم:

لاَ تَشْكُ دَهْرَكَ مَا صَحَحْتَ بِه ... إِنَّ الْغِنَى هُوَ صِحَّةُ الْجِسْم
هَبْكَ الخَلِيفَةَ كُنْتَ مُنْتَفِعاً ... بِغَضَارةِ الدُّنْيَا مَعَ السَّقَم

◉ ومنها اليأس من جبر مصابه ، ودرك طلابه ، فيقترن بحزن الحادثة ، قنوط الإياس فلا يبقى معها صبر ، ولا يتسع لهما صدر .

وقال ابن الرومى :

اصْبِرِى أَيَّتُهَا النَّفْـ ... ـسُ فَإِنَّ الصَّبْرَ احْجَى
رُبَّمَا خَابَ رَجَاءٌ ... وَأَتَى مَا لَيْــسَ يُرجَى

---

(١) سورة المعارج الآية (٥) .

وقال بعضهم :

أَتَحْسَبُ أَنَّ الْبُؤس للْحُـرِّ دَائمٌ ... وَلَوْ دَامَ شيءٌ عَدَّهُ النَّاسُ فى الْعَجَبْ
لَقَدْ عَرَّفَتْكَ الحَادثَاتُ بِبُؤسهَا ... وَقَـدْ أَدَّبَتْ إنْ كَانَ يَنْفَعُكَ الأَدَبْ
وَلَوْ طَلَبَ الإِنْسَانُ مِنْ صَرْفِ دَهْرِه ... دَوَامَ الَّذى يَخْشَى لأَعْيَاهُ مَـا طَلَبْ

◉ ومنها أن يغرى بملاحظة من حيطَتْ سلامته ، وحرست نعمته حتى الْتَحَفَ بالأمن والدعة ، واستمتع بالثروة والسعَة ، ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويًا ، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيًا ، فلا يستطيع صبرًا على بلوى ، ولا يلزم شكرًا على نُعْمَى ، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه فى الرزية ، وساواه فى الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر ، وحان منه الفرج .

قال : وأنشدت امرأة من العرب :

أَيُّهَـا الإِنْسَـانُ صَـبْـرًا ... إنَّ بَعْـدَ الْعُـسْـرِ يُسْـرًا
كَمْ رَأَيْنَا الْيَـوْمَ حـرًّا ... لَمْ يَكُنْ بالأَمْس حُـرًّا
مَلَكَ التِّـبْـر فَـأَضْـحَى ... مَـالكًا خَـيْـرًا وَشَـرًّا
اشْـرب الصَّـبْـر وَإِنْ كَـا ... نَ مِـنَ الصَّـبْـر أَمْـرًا

قال وأنشدت لبعض أهل الأدب :

يُرَاعُ الْفَتَى للْخَطْب تَبْدُو صُدُورُهُ ... فَيَيْأَسُ وَفى عُقْبَاهُ يَأتى سُرُورُهُ
أَلَـمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا تَرَاكَمَتْ ... دُجَاهُ بَدَا وَجْهُ الصَّبَاح وَنُورُهُ
فَلا تَصْحَبَنَّ الْيَأْسَ إنْ كُنْتَ عَالمًا ... لَبِيبًا فَإِنَّ الدَّهْـرَ شَتَّى أُمُورُهُ

أ هـ [1] ملخصًا

◉ ولما كان الجزع والهلع فطرة فى الإنسان بها خُلق وعليها جُبلَ ، فقد أرشدنا اللّه إلى طريق التخلص منها ، بقوله : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا**

(١) أدب الدنيا والدين ٢٧١ .

مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [1] .

فمن اتصف بهذه الصفات التّسع ، فقد أخذ بأسباب التخلص من الجزع والهلع وهذه الصفات هى :

أولاً : الخشوع فى الصلاة : وهو معنى قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ قاله عقبة بن عامر . قال ابن كثير : ومنه الماء الدائم وهو الساكن الراكد [2] .

ثانيًا : أداء الزكاة المفروضة سامحة بها أنفسهم .

ثالثًا : التصديق الجازم بيوم القيامة ، ذلك التصديق الدافع إلى العمل الصالح .

رابعًا : الخوف والإشفاق من عذاب اللّه ، خوفًا يبعد صاحبه عن كل ما يغضب اللّه ، وكل ما يوجب عذابه وعقابه .

خامسًا : حفظ الفروج عن المحرمات .

سادسًا : حفظ الأمانات وأداؤها تامة غير منقوصة .

سابعًا : الوفاء بالعهد وعدم الغدر فيه .

ثامنًا : أداء الشهادات دون زيادة عليها أو نقصان منها أو كتمانها .

تاسعًا : المحافظة على الصلاة : مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها .

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قال : « **شَرّ مَا فِي الرَّجُل : شُحٌّ**

---

(١) سورة المعارج الآية (١٩ ـ ٣٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤١٢) .

هَالِعٌ ، وجُبْنٌ خَالِعٌ » [(١)] رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند حسن .

فإن تخلص الإنسان من الجزع والهلع فتح على نفسه باب الصبر والفرج ، ولذلك قال النبى ـ ﷺ ـ: « **الصَّبْرُ ضِيَاءٌ** » [(٢)] . أى يضىء للإنسان فى ظلمات الحيرة ليرى الفرج قد اقترب والمحنة قد انكشفت والغمة قد انجلت .

والصبر أنواع :

فالأول : صبر على المصائب والبلايا سواء كانت فى الجسد ، أو فى الأهـل والولـد ، أو فى المال أو غير ذلك .

◉ فعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ ـ قال [(٣)] : « **يَقُولُ اللَّهُ تَعَالى : مَا لِعَبْدِى الْمُؤْمِنِ عِنْدِى جَزاء إِذَا قَبَضْتُ صَفِيه** [(٤)] **مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ،ثُمَّ احْتَسَبَهُ** [(٥)] **إِلاَّ الْجَنَّةُ** » رواه البخارى

◉ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ـ ﷺ ـ يقول : « إن اللَّه ـ عز وجل ـ قال إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر ، عوضته منهما الجنة » يريد عينيه رواه البخارى [(٦)] .

◉ وعن أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى اللَّه عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال [(٧)] : « **مَا يُصيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ** [(٨)] **وَلاَ وَصَبٍ** [(٩)] **، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أذىً وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ** » . متفق عليه .

ولكن هذا الأجر والثواب إنما يكون للصابرين دون غيرهم ،وبهذا يُعلم أن البلاء

---

(١) **صحيح**: أبو داود (٢٥١١) في الجهاد ، باب : في الجرأة والجبن ، وأحمد في المسند (٢ / ٣٠٢) ، والبيهقي (٦ / ١٧٠) ، صححه الألباني في الصحيحة رقم (٥٦٠) . .

(٢) **صحيح**: رواه مسلم رقم (٢٢٣) في الطهارة ، باب : فضل الوضوء ، الترمذي (٣٥١٧) في الدعوات، النسائي (٥ / ٥ ، ٦) في الزكاة ، وابن ماجة (٢٨٠) في الطهارة ، وأخرجه أحمد في المسند (٥ / ٣٤٢) .

(٣) **صحيح**: رواه البخاري رقم (٦٤٢٤) في الرقاق ، باب : العمل الذي يبتغي به وجه الله .

(٤) **صفيه** : حبيبه .

(٥) أي صبر وسلم بقضاء الله وادخر ثواب صبره عند الله .

(٦) **صحيح** : رواه البخاري رقم (٥٦٥٣) في المرضي ، باب : فضل من ذهب بصره ، والترمذي (٢٤٠١) في الزهد .

(٧) **متفق عليه**: البخاري رقم (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) في المرضي ، باب : ما جاء في كفارة المرضي ، ومسلم رقم (٢٥٧٣) في البر ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ، والترمذي رقم (٩٦٦) في الجنائز

(٨) **نصب** : تعب .

(٩) **وصب** : مرض .

من اللَّه خير ومنة ، فقد قال رسول اللَّه ـ ﷺ ـ : « **مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ** »(١) رواه البخارى .

وقال أيضاً : « **إنَّ عظَمَ الجزاءِ مَعَ عظمِ البَلاءِ ، وإنَّ اللَّهَ ـ تعالى ـ إذا أحَبَّ قَوْمًا ابْتلاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ** »(٢) .

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول اللَّه ـ ﷺ ـ قال : « **مَا يَزالُ البَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ** »(٣) .

والثانى : الصبر على امتثال ما أمر اللَّه تعالى به ؛ لأن الطاعات تحتاج إلى صبر في تأديتها وصبر فى مجاهدة الشيطان والهوى ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا والذُّنُوب** »(٤) .

وقال النبى ـ ﷺ ـ : « **حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ ، وحُفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكارِهِ** »(٥) رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

الثالث : صبر عن الشهوات والمعاصى ، قال تعالى ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾(٦) والنبى ـ ﷺ ـ يقول : « **الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ** » رواه مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

فالشيطان يُزين للإنسان المعاصى ويحببها إلى قلبه ويقربه ويدنيه منها ؛ لكى يوقعه فيها فالمرأة مثلاً إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان فيزينها فى عيون الناظرين ويحسنها فى قلوبهم ، فإذا صبر المسلم وغض بصره لم يستطع الشيطان أن ينفذ إلى قلبه .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري رقم (٥٦٤٥) في المرضي ، باب : ما جاء في كفارة المرض ، ومالك في الموطأ (٢ / ٩٤١) .

(٢) **حسن** : الترمذي (٢٣٩٦) في الزهد ، باب : ما جاء في الصبر علي البلاء ، وإسناده حسن لأجل سعد ابن سنان الكندي قال الحافظ في التقريب : صدوق له إفراد وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٤٦) .

(٣) **صحيح** : الترمذي (٢٣٩٩) في الزهد ، باب ؛ ما جاء في الصبر علي البلاء ، وأخرجه أحمد في المسند (٢ / ٤٥٠) ، والحاكم في المستدرك (١ / ٣٤٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وهو في صحيح الجامع (٥٨١٥) .

(٤) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٦ / ٢١) بإسناد صحيح وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥٤٩)

(٥) **متفق عليه** : البخاري رقم (٦٤٨٧) في الرقاق ، باب حجبت النار بالشهوات ، ومسلم رقم (٢٨٢٣) في الجنة وصفة نعيمها .

(٥) سورة النازعات الآية (٤٠ ـ ٤١) .

(٦) **صحيح** : رواه مسلم رقم (٢٩٥٦) في الزهد والرقائق ، في فاتحته .

الرابع : الصبر على الأذى فى سبيل اللّه ، لأن المؤمن المتمسك بدينه الملتزم بأوامر ربه ، المقتدى بنبيه ظاهرًا وباطنًا لابد أن يناله الأذى ، ويصيبه المكروه ويعاديه أهل الباطل ويخطط له ويدبر أهل الشر والفساد ﴿**الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ وهذا واقع أهل الحق اليوم : المعاداة من القريب والبعيد والرؤساء والشعوب ، فعلماء السوء يرمونهم بالتطرف ، والعلمانيون يرمونهم بالتخلف والرجعية ، والعامة يرمونهم بالتعصب والتزمت .

ولعل هذا يرجع إلى أن الحقَّ لا يُمَاشى هواهم أو لأنهم لم يفهموا ما عليه أهل الحق فهمًا جيدًا ولذلك نقدم هذه القصيدة لشاَب من شباب الدعوة فى الدفاع عن أهل الحق مع بيان منهاجهم وطريقتهم :

اللّه أكْبَرُ فى الدِّفَاع سَأبْتدى ... وَهوَ المُعينُ عَلَى نَجَاحِ المَقْصد
وَهوَ الَّذى نَصَرَ النَّبِى مُحَمَّدًا ... وَسَيَنْصُرُ المتَتَبّعينَ لأحْمَدَ
وَبه أصُولُ عَلَى جَميع خُصُومنَا ... وأعُدُّه عَوْنًا عَلَى مَنْ يَعْتَدىَ
سَأرْسلُ سَهْمًا منْ كنَانَة وَحْيه ... وَبه أشُدُّ عَلَى كتَائب حُسَّدى
وَبه سَأجْدَعُ أنْفَ كُلِّ مُكَابر ... وَبه سَأرْصُدُ للْكفُور الملْحد
وَسَأسْتَجيرُ بذى الجَلاَل وَذى العُلاَ ... لاَ لَنْ أضَامَ إذَا استَجَرْتُ بسَيِّدى
وَسَأسْتَمدُّ العَوْنَ منْهُ عَلَى الَّذى ... لَمَزَ الأحبَّةَ بالْكَلاَم المفْسد
حَتَّى أُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ بأدلَّة مثل ... الصَّوَاعق فى السَّحَاب الأسْوَدَ
وبنُور وَحْى اللّه أكْشفُ جَهْلَهُمْ ... حَتَّى يَبِينَ عَلَى رُءُوس المشْهَدَ
لاَ تَلْمزُونا يَا خفَافيشَ الدُّجَى ... بتَطَرُّف وتَسَرُّع وتَشَدُّدَ
لاَ تَقْذفُونَا بالشُّذُوذ فَإنَّنا ... سرْنَا عَلَى نَهْج الخَليل مُحَمَّد
وَلكل قَوْل نَسْتَدلُّ بآية ... أوْ بالْحَديث المسْتَقيم المسْنَدَ
وَالنَّسْخَ نَعْرفُ وَالعُمُومَ وَإنَّنَا ... مُتَفَطِّنُونَ لمطلَق ومُقَيَّدَ
وَنُصُوصُ وَحْى اللّه نُتْقنُ فَهْمَهَا ... لا تحسبُونَ الْفَهْمَ كَالرَّأى الرَّدىَ
وَإذَا تَعَارَضَت النُّصُوصُ فَإنَّنَا ... بأُصُول سَادَتنَا الأئمة نَهْتَدى

وَنُحَارِبُ التَّقْليدَ طُولَ زَمَانِنَا   مَعَ حُبِّنَا لَلْعَالِم المتَجَرِّدِ
وكَذَا الأئمَّةُ حُبُّهم مُتَمكِّنُ   مِنْ كلِّ نَفْسٍ يَا بَرِيَّةُ فَاشْهَدِى
وتَرق أَنْفُسُنَا لرؤية مَنْ غَدَا   فى رِبْقَةِ التَّقْليد شِبْهَ مُقَيَّد
إنَّا نَرَى التَّقْليدَ دَاءً قَاتلا   حَجَبَ العُقُولَ عَنِ الطَّرِيق الأَرْشَدِ
جَعَلَ الطَّرِيقَ عَلَى المقلِّد حَالكًا   فَتَرَى المقَلِّدَ تَائهًا لا يَهْتَدِى
فَلذا بَدَأْنَا فى اجْتِثَاث جُذُوره   مِنْ كُلِّ قَلْبٍ خَائف مُتَرَدِّد
ولَسوفَ نَدْملُ دَاءَهُ وَجراحَهُ   بمَرَاهِم الْوَحْىِ الشَّرِيفِ المرْشِد
نَدْعُو إلَى التَّوْحيد طُولَ حَيَاتنَا   فى كُلِّ حين فى الخَفَا وَالمشْهَدِ
وَنُحَارِبُ الشِّرْكَ الخَبيثَ وأَهْلَهُ   حَرْبًا ضَرُوسًا باللِّسَان وَباليَدِ
وكَذلكَ البِدَعَ الخَبِيثَةَ كُلَّهَا   نَقْضى عَلَيْهَا دُونَ بَابِ المسْجد
هَذِى طَرِيقَتُنَا وهَذَا نَهْجُنَا   فَعَلاَمَ أَنْتُمْ دُونَنَا بالَمرْصَد؟!
لِمَ تَطْعنُونَا وتَلمزُونَا كَأَنَّنَا   جِئْنَا برأى للعَقيدَةَ مُفْسِد؟!
أَلمذْهَب ولعَادَة وحُكُومَة   تَتَهرَّبُونَ مِنَ الحَدِيث الجَيِّدَ؟!
هَذَا الحَدِيثُ تَلألأتْ أَنْوَارُهُ   رَغْمَ الجَهُول وَرَغْمَ كُلِّ مُقَلِّد
إنْ كُنْتُمُ تَتَضَرَّرُون بنُوره   فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ رَغْمَ أَنْف الأَرْمَدِ
بِاللَّه قُولُوا مَا الَّذِى أَنْكَرْتُمُو   عَلَّ البَرِيَّةَ للحقيقَة تَهْتَدِى ؟
هَدَّدْتُمُونَا بالمذَاهب بَعْدَمَا   وَضُعَ الدَّلِيلُ فَبئسَ مِنْ مُتَهَدِّد
وبهتَمُونَا بالقَبَائح كُلِّهَا   وعَرَضْتُمُونَا بالقنَاع الأَسْوَدَ
وَرَفَعْتُمونَا للوُلاة تَشَفِّيًا   وفَرحْتُمُو بتَهَدُّدٍ وتَوَعُّد
لكنَّنَا لُذْنَا بباب إلَهنَا   فَأَرَاحَنَا مِنْ كُلِّ خَصْمٍ مُعْتَدِى
وجَلاَ الحَقيقَةَ للمَلاَ فَخَسئْتُمُو   والسُّوءُ يَظْهَرُ مِنْ خَبِيث المَقْصد
يَا مَعْشَرَ الإخوَان سِيرُوا وأَبْشِرُوا   وثِقُوا بنَصْر الْوَاحد المتَفَرِّد
سِيرُوا عَلَى نَهْجِ الرَّسُول وَصَحْبه   لا تَعْبَئُوا بالآثِم المتَمَرِّد

وَلْتُعْلنُوهَا للْبَرِّيَة كُلها ... إنَّا بغَير مُحَمَّد لا نَقْتَدى
لاَ نَطْلُبُ الدُّنْيا ولاَ نَسْعَى ... لها اللّهُ مَقْصدُنَا ونِعْمَ المقْصَد
لَيْسَ المَناصبُ هَمَّنَا ومُرَادَنَا ... كَلا وَلا ثَوْبَ الخَديعَة نَبْتَدى
إنَّا لَنَسْعَى فى صَلاَح نُفُوسنا ... بعلاَج أنْفُسنَا المريضَة نَبْتَدي
وَنُحبُّ أنْ نَهْدى البَرِيَّة كُلَّهَا ... نَدْعُو القَريبَ قُبَيْلَ نُصْح الأبْعَد
وَبوَاجب المعْروف نَأمُرُ قَوْمَنَا ... ونَقُومُ صَفًا فى طَريق المفْسد
لَوْ تُبْصرُوا الإخْوَانَ فى حَلْقَاتنا ... منْ عَالم أوْ طَالب مُسْتَرْشد
لَرَأيْتَ علْمًا واتِّبَاعًا صَادقًا ... للسُّنَّة الغَرَّاء دُونَ تَرَدُّد
أنْعمْ بطُلاب الحَديث وأهْله ... وَأجلّهم عَنْ كُل قَوْل مُفَنَّد
هُمْ زينَةُ الدُّنْيَا مَصَابيحُ الْهُدَى ... طلَعُوا عَلَى الدُّنْيَا طُلوعَ الفرْقَد
وَرِثُوا النَّبىَّ وأحْسنُوا فى إرْثه ... وحَمَوْهُ منْ كَيْد الخَبيث المعْتَدى
سَعدُوا بهَدْى مُحَمَّد وكَلاَمه ... وَسواهُمُو بكَلاَمه لَمْ يَسْعَد
والدِّينُ قَالَ اللّهُ قَالَ رَسُولُهُ ... وَهُمُو لدين اللّه أفْضَلُ مُرشد
وَالفقْهُ فَهْمُ النَّص فَهْمًا وَاضحًا ... منْ غَيْر تَحْريف وتَأويل رَدى
لاَ تَحْسَبَنَّ الْفقْهَ مَتْنًا خَاليًا ... منْ كُلِّ قَوْل للمُشَرِّع مُسْنَد
أوْ قَالَ عَالمُنَا وقَالَ إمَامُنَا ... أوْ ذَاكَ مَذْهَبُ أحْمَد ومُحَمد
هَذَا كَلامٌ لَيْسَ فيه هدَايةٌ ... منْ سَارَ فى تَحْصيله لاَ يَهْتَدى
فَعَلَيْكَ بالْوَحْيين لاَ تَعْدُوهُمَا ... وَاسْلُكْ طَريقَهُمَا بفَهْم جَيِّد
فَإذَا تَعَذَّرَ فَهْمُ نَص غَامض ... فَاستفْت أهْلَ الذِّكْر كَالْمسْتَرشد
بالبَيِّنَات وَبالزَّبُور فَإنَّهُ ... منْ أمْر رَبِّكَ فى الْكتَاب فَجَوِّد
وَاعْلَم بأنَّ مَنْ اقْتَدَى بمُحَمَّد ... سَيَنَالُهُ كَيْدُ الغُوَاة الحُسَّد
ويَذُوقُ أنْوَاعَ العَدَاوة وَالأذَى ... منْ جَاهل ومُكَابر ومُقَلِّد
فَاصْبرْ عَلَيْه وكُنْ بربِّكَ وَاثقا ... هَذَا الطَّريقُ إلَى الْهُدَى وَالسُّؤدُد

أحوال الصبر :

◉ **للصبر مع الهوى ثلاث أحوال :**

الأولى : أن يقهر الصبر الهوى ويذلّه ،فيصير الصبر دأبا للإنسان وعادة له ، فلا يعتريه جزع ولا ينازعه هوى ،وهذه المرتبة لا يصلها إلا الصدّيقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا [(١)] .

الثانية : أن يتغلب الهوى على الصبر ،حتى لا تجد للصبر مكانًا فى قلب الإنسان ، فقد أصبح أسير الهوى والشهوة ، وهؤلاء هم الأكثرون فى زماننا هذا .

الثالثة : أن تكون الحرب سجَالاً بين الجنديين ، فتارة تجده صابرًا محتسبًا ، وتارة تجده جازعًا هلعًا .

١٢ ـ اتباع الهوى :

إن الله تبارك وتعالى عندما ركّب الهوى فى الإنسان خلق له عقلاً ؛ ليكون عليه أميرًا وله قائدًا .

قال بعض الشعراء :

يَاعَاقِــلاً أرْدَى الْهَــوَى عَقْلَهُ   مَالَكَ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْكَ الأُمُورُ
أتَجْعَلُ الْعَقْلَ أسِيرَ الْهَوَى   وَإنَّمَا الْعَقْــــلُ عَلَيْه أمِيرُ

قال أبو الحسن الماوردى : وأما الهوى فهو عن الخير صاد ، وللعقل مضاد ؛ لأنه ينتج مــن الأخـلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا ، ومدخل الشر مسلوكًا . أهـ[(٢)] .

وقال أيضًا: ولما كان الهوى غالبًا وإلى سبيل المهالك موردًا ، جعل العقل عليه رقيبًا مجاهدًا ، يلاحظ عثرة غفلته ، ويدفع بادرة سطوته ، ويدفع خداع حيلته ؛ لأن سلطان الهوى قوى ، ومدخل مكره خفى . أ هـ[(٣)] .

---

(١) اقتباس من سورة الأحقاف الآية (١٣) .
(٢) أدب الدنيا والدين (١٣ ـ ١٦) .
(٣) أدب الدنيا والدين (١٣ ـ ١٦) .

وقال بعض العلماء : ركب اللهُ الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم (١) .

والمثل العربى يقول : العقل وزير ناصح ، والهوى وكيلٌ فاضح .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح(٢) .

فالعاقل من يحكِّم عقله فى هواه ، وأعقل منه من يحكم الشرع فى عقله وهواه ، فعلى منهاج الشرع يسير ، وبنوره يستضىء .

ولقد بين الله عز وجل أن اتباع الهوى هو طريق الضلال والإنحراف ، والشقاوة والإجحاف ، فقال سبحانه : ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (٣) .

وروى أن إبليس قال : أهلكتهم بالذنوب ، فأهلكونى بالاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون .

◉ وعن أبى برزة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ ، وَمُضِلاَّتِ الهَوَىٰ** » (٤) .

وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع .

◉ قال ابن عباس رضي الله عنه : ما ذكر الله ـ عز وجل ـ هوى فى القرآن إلا ذمه قال تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ** ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** ﴾ (٧) وقال

---

(١) أدب الدنيا والدين (١٣ ـ ١٦) .
(٢) القرطبي (٦/ ١٦٨) .
(٣) سورة ص الآية (٢٦) .
(٤) **صحيح** : قال المنذري : رواه أحمد ، والبزار ، والطبراني في معاجمه الثلاثة ، وبعض أسانيدهم رواته ثقات ، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (١/ ٥٢) .
(٥) سورة الأعراف الآية (١٧٦) .
(٦) سورة الكهف الآية (٢٨) .
(٧) سورة الروم الآية (٢٩) .

تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنتم فى زمان يقود الحقُّ الهوى ، وسيأتى زمان يقود الهوى الحقَّ (٣) .

قال ابن السماك : كن لهواك مسوفًا ولعقلك مُسعفًا ، وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته ، فإنَّ ترْك النفس وما تهوى دواؤها ، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء .

وقال الشاعر :

صَبَرْتُ عَلَى الايَّامِ حَتَّى تَـولَّت ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسى صَبْرَهَا فَاسْتَمَدَّت

وَمَا النَّفْسُ إلا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى ... فَإِنْ أُطْعِمَتْ تَاقَتْ وَإِلا تَسَلَّت (٤) .

وللهوى مع العقل ثلاثة أحوال :

الأول : أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه ، حتى تستولى عليه غلبة الهوى والشهوات ، فيكلُّ (٥) العقل عن دفعها ، ويضعف عن منعها ، مع وضوح قبحها فى العقل المقهور بها ، وهذا يكون فى الأحداث أكثر ، وعلى الشباب أغلب ، لقوة شهواتهم ، وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم .

وصاحب هـذه الحـالة أسير الهوى فلا يفكر إلا بهواه ،ولا يعادى إلا من أجله ، ولا يصادق إلا من أجله ، ولا يجتهد إلا لنيله . وربما ذلّه الهوى واتخذه عبدًا : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ (٦) .

ومن تحكّم فيه هواه قاده إلى الذل والهوان ، والخيبة والخسران .

---

(١) سورة القصص الآية (٥٠)

(٢) القرطبي (١٦ / ١٦٧) .

(٣) القرطبي (١٩ / ٢٨٠) .

(٤) أدب الدنيا والدين ـ ١٥ .

(٥) الكل : الثقل ، قال تعالي : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَي مَوْلاَهُ ﴾ .

(٦) سورة الفرقان الآية (٤٣) .

وقد قيل :

إذَا أنْتَ لم تعص الْهَوَى قادك الْهَوَى ... إلى كُلِّ مَا فيه علَيْكَ مَقَالُ

قال القرطبى : قال الأصمعى : سمعت رجلاً يقول :

إنَّ الهوَانَ هُوَ الْهوَى قُلبَ اسمُهُ ... فإذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقيتَ هوَانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هوان سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه فقال :

نُونُ الهوَانِ منَ الْهوَى مَسْرُوقَةٌ ... فَإذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقيتَ هوَانا

وقال آخر :

إنَّ الْهوَى لَهَــــوانٌ بعَيْنه ... فَإذَا هَوَيْتَ فَقَد كَسَبْتَ هوَانا
وَإذَا هَوَيْتَ فَقَد تَعَبَّدَكَ الْهَوَى ... فَاخْضَـــعْ لُحبِّكَ كَائنًا مَنْ كَانا

ولعبد الله بن المبارك :

وَمنَ الْبَلاَيا للْبَلاَء عَــــلاَمَةٌ ... ألاَّيُرَى لَكَ عَنْ هَوَاكَ نُزُوعُ
الْعَبْدُ عَبدُ النَّفْسِ في شَهَوَاتهَا ... وَالْحرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوعُ

ولابن دريد :

إذَا طَالَبَتك النَّفْسُ يَوْمًا بشَهْوَة ... وكَانَ إلَيْهَا للْخلاَف طَريقُ
فَدَعْهَا وَخَالفْ مَا هَوَيْتَ فَإنَّمَا ... هَوَاكَ عَدو وَالْخلاَفُ صَديقُ

ولأبى عبيد الطوسى :

وَالنَّفْسُ إنْ أعْطَيْتَهَا مُنَاهَا ... فَاغرةٌ نَحْوَ هوَاهَا فَاهَا

وقال سهل بن عبد الله التسترى : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك أ هـ [1] ملخصًا .

---

(١) تفسير القرطبي (١٦ / ١٦٨) .

وقال أيضًا :

إِذَا الْمرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ مَا اشْتَهَتْ ... وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إلى كُلِّ بَاطِلِ
وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الإِثْمَ وَالْعَارَ بِالَّذى ... دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلاَوَةِ عَاجِلِ

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه : إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم ، فإن عاجلها ذميم ، وآجلها وخيم ، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب ، فَسَوِّفْهَا بالتأميل والإرغاب ، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت [١]

◉ والهوى إذا تغلب على العقل أسكره ، فلا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، وربما زاد تأثيره عليه حتى يقلب عنده الموازين ، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً . فنعوذ بالله من الخذلان .

الحالة الثانية : أن تكون الحرب بينهما سجالاً ، فمرة يجتذبه الهوى ، ومرة يعود إلى رشده . فعلى صاحب هذه الحالة أن يُكثر من أصدقاء الخير الذين يذكرونه إذا نسى ، وينبهونه إذا غفل ، ويرشدونه إذا جهل ، وينشِّطونه إذا كسل ، ويقوونه إذا ضعف ، ويأخذون بيده إلى الطريق المستقيم ، وعليه أيضًا أن يلبس درع الحرب ، ويشد عليه سلاحه وينزل ميدان النفس ؛ ليجاهد جند الهوى .

قال الحسن البصرى رحمه الله : أفضل الجهاد : جهاد الهوى ، وقال المصطفى ﷺ : « **وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوب** » [٢] .

وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر فى مجاهدته ؟ قال : من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه .

وقال بعضهم : خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه ، وعصى هواه فى طاعة ربه . وعليه أن يستميت فى الجهاد لأن الغنيمة ثمينة « **أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَة ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ** » [٣]

---

(١) أدب الدنيا والدين ١٥ ، ١٦ .
(٢) **صحيح** : رواه أحمد في المسند (٦ / ٢١) بإسناد صحيح وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥٤٩)
(٣) **حسن** : أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٧٧) ، والبيهقي (٧ / ٣٥٨ / ١٠٥٧٧) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٣٠٨) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٩٥٤) وصحيح الجامع (٦٢٢٢) .

◉ وعليه أن يصبر وإن طال الجهاد ، فحرى بالمجاهد أن ينتصر ، وبالصابر أن يفوز ، وبالراغب أن ينال .

◉ وعليه أن يستعين بالله على نفسه وهواه ؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

◉ وعليه أن يدعو بدعاء إمام المجاهدين ﷺ : « **نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا** »(١) وقوله : « **اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ،وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا** » رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم (٢) .

الحالة الثالثة : أن يتغلب على الهوى فيكبته ويقهره ، ويكبح جماحه ، ويوجهه نحو الشرع فبه يستضيء ، وعلى طريقه يسير ، وبرسوله يقتدى ، وهؤلاء هم المستقيمون الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، الذين تمثلوا قول النبي ﷺ : « **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ** » (٣) وهم المقصودون بقول الله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (٤) .

يقول سيد قطب رحمه الله : والذى يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشرى ، قاده خوف هذا المقام إلى الندم والاستغفار والتوبة ، فظل فى دائرة الطاعة .

◉ ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز فى دائرة الطاعة ، فالهوى هو الدافع القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى وينبوع الشر ، وقَلَّ أن يؤتى إنسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

◉ والخوف من الله هو الحاجز الصُّلْبُ أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقلّ أن يثبت غيرهذا الحاجز أمام دفعات الهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآنى فى آية واحدة فالذى يتحدث هنا هو خالق هذه النفس ، العليم بدائها ، الخبير بدوائها ، وهو وحده

---

(١) صحيح : أبو داود (٢١١٨) في النكاح ، باب في خطبة النكاح ، والترمذي (١١٠٥) في النكاح والنسائي (٣/ ١٠٥) في الجمعة ، وابن ماجة (١٨٩٢) في النكاح .
(٢) صحيح : رواه مسلم رقم (٢٧٢٢) في الذكر والدعاء ، باب : ما يقول عند النوم ، النسائي (٨/ ٢٦٠) في الاستعاذة والترمذي (٣٥٦٧) في الدعوات ، وأحمد في المسند (٤ / ٣٧١) .
(٣) صحيح : رواه مسلم رقم (٣٨) في الإيمان ، باب : جامع أوصاف الإسلام .
(٤) سورة النازعات الآية (٤٠ ـ ٤١) .

الذى يعلم دروبها ، ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تُطارد فى مكامنها ومخابئها .

◉ ولم يُكلف الله الإنسان ألا يشتجر فى نفسه الهوى ، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ، ولكنه كلّفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين فى هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب ، وكتب له بهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١) ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك فى تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

◉ إن الإنسان إنسان بهذا النهى ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع ، وليس إنسانًا يترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركّب فى طبيعته ، فالذى أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذى أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه ، ودفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة مأوى حين ينتصر ، ويرتفع ويرقى . أ هـ (٢) .

١٣ ـ سوء الظن :

إن سوء الظن من الفخاخ التى يصطاد بها الشيطان قلوب العباد ؛ لأن سوء الظن من عوامل تفكيك الجماعات ، وإفساد العلاقات ، وتقطيع أواصر المحبة ، وفى هذا الجو المظلم يستطيع الشيطان أن يعمل عمله ، وينفذ خطته ، فيصطاد المسلمين واحدًا تلو الآخر ؛ لأنهم تفرقوا ولم يجتمعوا ، وتفككوا ولم يعتصموا ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

◉ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **مَنْ أَحَبَّ مِنكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ** » . رواه أحمد والترمذى وقال : حسن صحيح غريب (٣) .

ولذلك يجتهد الشيطان فى التفريق بين الأحبة ، وتشتيت الصحبة ، ولكن النبى

(١) سورة النازعات الآية (٤١) . (٢) الظلال (٦ / ٣٨١٩) .

(٣) صحيح بمجموع طرقه : الترمذي رقم (٢١٦٥) في الفتن ، باب : ما جاء في لزوم الجماعة ، وأخرجه أحمد في المسند (١ / ١٨ ، ١٦) ، الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، والألباني ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في التعليق على المسند .

الرحيم - صلوات الله وسلامه عليه - نبّهنا إلى هذا المدخل الخبيث من مداخل اللعين فقال : « **إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث ، ولاَ تَجَسَّسُوا ، ولاَ تحَاسَدُوا ، ولاَ تبَاغَضُوا ، ولاَ تدَابَرُوا ، وكُونُوا عِبَادَ الله إخْوَاناً** » رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم وأبو داود والترمذى (١) .

قال الحافظ : قال القرطبى : المراد بالظن هنا التهمة التى لا سبب لها ، وكمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها ، ولذلك عطف عليه قوله « **ولاَ تجَسَّسُوا** » ، وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة ، فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع ؛ فنهى عن ذلك وهذا الحديث يوافق قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً** ﴾ (٢) فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة ؛ لتقدم النهى عن الخوض فيه بالظن ، فإن قال الظان : أبحث لأتحقق ، قيل له : ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ فإن قال : تحققت من غير تجسس ، قيل له : ﴿**وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً**﴾ أهـ (٣) .

قال القرطبى رحمه الله : الظن فى الشريعة قسمان : محمود ومذموم ، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه ، المذموم ضده ، بدلاله قوله تعالى : ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ وقوله : ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً**﴾ (٤) .

قال : والذى يُميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تُعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاة ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد به والخيانة محرم ، بخلاف من اشتهر بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث . وعن النبى ﷺ قال : « **إِنَّ اللّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَعِرْضَهُ ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ** » (٥، ٦) أهـ .

---

(١) متفق عليه : البخاري رقم (٥١٤٣) في النكاح ، باب : لا يخطُب على خطبة أخيه ، ومسلم رقم (٢٥٦٣) في البر والصلة ، باب : تحريم الظن والتجسس .
(٢) سورة الحجرات الآية (١٢) .
(٣) فتح الباري (١٠ / ٤٨١) .
(٤) سورة النور الآية (١٢) .
(٥) رواه ابن ماجه بنحوه وسنده ضعيف .
(٦) تفسير القرطبي (١٦ / ٣٣٢) .

قال ابن كثير رحمه الله عليه: وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه قال : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا ، وأنت تجد لها فى الخير محملاً [١] .

روى أبو داود بسند جيد عن زيد رضي الله عنه قال : أُتى ابن مسعود رضي الله عنه برجل ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا ، فقال عبدالله رضي الله عنه : إنا نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

ولما كان ظن السوء مُفسدًا للمجتمع المسلم فقد أمرنا الله باجتنابه ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [٢] .

يقول سيد قطب رحمه الله : وتبدأ الآية بهذا النداء الحبيب ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ، ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلا يتركوا أنفسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك ، وتعلل هذا الأمر : ﴿ **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ ، وما دام النهى منصبًا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلاً ؛ لأنه لا يدرى أى ظنون تكون إثمًا .

◉ بهذا يُطهر القرآنُ الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء فيقع فى الأثم ، ويدعه نقيًا ، بريئًا من الهواجس والشكوك ، أبيض يُكنُّ لإخوانه المودة التى لا يخدشها ظن السوء ، والبراءة التى لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التى لا يعكرها القلق والتوقع ، وما أروع الحياة فى مجتمع بريء من الظنون . أهـ [٣] .

◉ والظن خواطر تقع فى القلب ربما لا يستطيع الإنسان دفعها فيجب عليه أن يضعفها بظن الخير ، فإن لم يستطع فعليه أن يتذكر عيوبه وخفايا ذنوبه ؛ لينشغل بها عن عيوب الناس . فإن لم يستطع أن يدفع الظن السيء بذلك فعليه أن لا يتكلم به ، أو يبحث عن تحقيقه ، وبهذا يسلم من الإثم ؛ لأن النبى ﷺ قال [٤] : « **إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِى مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَل ، أَوْ تَتَكَلَّمْ** » متفق عليه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٢١٢) .
(٢) الحجرات : (١٢) .
(٣) الظلال (٦ / ٣٣٤٥) .
(٤) متفق عليه : البخاري رقم (٥٢٦٩) في الطلاق ، باب : الطلاق في الاغلاق ، ومسلم رقم (١٢٧) في الإيمان ، باب : تجاوز الله عن حديث النفس .

١٤ـ احتقار المسلم :

إن احتقار المسلم والسخرية من أعظم الذنوب عند الله تعالى ، ولذلك يقول النبي ﷺ[١] : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » . حتى وإن وقع من المسلم شيء خارج عن الآداب الاجتماعية ـ يجب أن يلتمس له الأعذار .

◉ ففي صحيح البخاري : عن عبد الله بن زمعة قال : « **نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس** » [٢] يعني ـ الفساء والضراط ـ بدليل الرواية الأخرى للبخاري [٣] من حديث عبد الله بن زمعة أيضًا ثم وعظهم في الضرطة فقال : « **لم يضحك أحدكم مما يخرج منه ؟!** »

فيجب أن يكون الاحترام والتقدير متبادلاً بين أفراد المجتمع المسلم ولذلك قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ** ﴾ [٤] .

توجيهات إلهية لصلاح المجتمع المسلم ، وتنقيته من شوائب الشحناء والبغضاء لو تمسك بها أفراده ؛ لانتشر الحب بينهم وغمرت السعادة قلوبهم .

يقول القرطبي : ينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبق في محادثته ، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه ؛ لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع .

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوكل بالقول ، ولو سخرت من كلب ؛ لخشيت أن أحوَّل كلبا أ هـ [٥] .

(١) صحيح : مسلم (٢٥٦٤) في البر و الصلة ، باب تحريم ظلم المسلم ، وأبو داود (٤٨٨٢) في الأدب ، والترمذي (١٩٢٧) في البر ، وابن ماجه (٤٢١٣) في الزهد ورواه أحمد في المسند (٣/ ٤٩١) وهو في صحيح الجامع (٧٢٢٤٢) .

(٢) صحيح : رواه البخاري رقم (٦٠٤٢) في الأدب ، باب : قول الله تعالي : « يا أيها الذين آمنو » وبنحوه مسلم رقم (٢٨٥٥) في الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون .

(٣) متفق عليه : البخاري (٤٩٤٢) في تفسير سورة الشمس ، ومسلم رقم (٢٨٥٥) في الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون .

(٤) سورة الحجرات الآية (١١) .

(٥) تفسير القرطبي (١٦ / ٣٢٥) .

هذا من ناحية العيوب الخلقية ، أما من ناحية التفريط فى أمر من أمور الدين فلا يوجب ذلك احتقاره والاستهزاء به والسخرية منه ، ولكن تبغض عمله السيىء وتدعوه إلى الإقلاع عنه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد قال النبى ﷺ « **إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ ينظُر إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُمْ** »(١) رواه مسلم .

يقول القرطبى رحمه الله : وهذا حديث عظيم يترتب عليه أن لا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال .

ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية ، يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه فالأعمال أمارات ظنيه ، لا أدلة قطعية . ويترتب عليه عدم الغلو فى تعظيم من رأينا عليه أعمالاً صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة ، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة ، فتدبر هذا فإنه نظر دقيْق ، وبالله التوفيق أ هـ(٢) .

وما قاله القرطبى ـ رحمه الله ـ فى التفريق بين بغض الذنب وبغض المذنب دقيق فعلاً ، قلما ينتبه إليه كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، ويؤيده(٣) قول النبى ﷺ : « **فَوَ الذى لاَ إلهَ غَيْرُهُ إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنّة ،حَتّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذراعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكتَابُ ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهَلِ النّارِ ،حتَّى مَا يَكُونُ بينه وَبَيْنَهَا إلاَ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمِلِ أهْلِ الجَنّةَ فَيَدْخُلُهَا** » متفق عليه .

ولكن ربما استشكل فهم هذا الحديث على البعض ، والمعنى ـ والله أعلم ـ أن الرجل يُظهر الأعمال الصالحة للناس وإن قلبه مليء بالرياء والنفاق ، فالظاهر للناس أنه يعمل بعمل أهل الجنة ، ولكن الله يعلم ما خفى عنهم من خبث باطنه ؛ ولذلك يختم له بعمل سيىء ، والأعمال بالخواتيم !

◉ وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار من الذنوب والمعاصى وغيرها ،ثم يتوب توبة

(١) صحيح :مسلم رقم (٢٥٦٤) في البر والصلة ، باب : تحريم ظلم المسلم .
(٢) تفسير القرطبي (١٦ / ٣٢٧)
(٣) متفق عليه : البخاري رقم (٣٢٠٨) في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر ، باب كيفية الخلق الأدمي .

صادقة خالصة ويبدأ مع الله عهدًا جديدًا مليئًا بالطاعات والقربات ، فيقبل الله توبته ؛ لعلمه بإخلاص نيته ، وصفاء قلبه ، ويختم له بعمل صالح ، والأعمال بالخواتيم .

ويؤيد ذلك حديث سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الرَّجل لَيَعْمَلُ عَمَلَ أهْلِ الجنَّة ـ فيما يَبْدُو للنَّاسِ ـ وَهُوَ مِنْ أهْلِ النَّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أهْلِ النَّارِ ـ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ ـ وَهُوَ مِنْ أهْلِ الجَنَّة** »[١] .

◉ ويوضح هذا ما رواه مسلم[٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أول الناس يُقْضَى يَوْمَ القِيامَة عَلَيْه ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ به فَعَرفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، ولَكنّكَ قَاتَلْتَ ؛ لأنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ . فَقَدْ قيل ، ثُمَّ أمر به فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه ،حتّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وَعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرآنَ ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نعمه فَعرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا فَعَلْتَ فيها ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ ، وعَلَّمْتُهُ ، وقَرَأْت فِيكَ القُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وقَرَأْتَ القرآن لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أمِرَ بِه فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْه وأعْطَاهُ مِنْ أصْنَافِ المَالِ ، فَأُتِيَ بِه فَعَرَّفَهُ نعمَهُ فَعَرفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَركْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحبُّ أنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلا أنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَاد ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أمِرَ بِه فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ** »

◉ والمقصود أن الرجل لا يغتر بطاعته فيحتقر غيره من العاصين ، فإنه لا يدرى بماذا سيختم له ؟ والأعمال بالخواتيم .

١٥ ـ احتقار الذنوب :

ومن مداخل الشيطان أيضًا أنه يأتى للمسلم ويقول له : هذا ذنب صغير ، هذا هين ، حتى يوقعه فيه ، فبالتهاون ارتكبت كثير من الذنوب ، وانتهكت حرمات الله .

ولكن المسلم العاقل يحترز من الذنوب صغارها وكبارها ؛ لأن اقتراف الصغيرة يجر إلى الكبيرة ، بل إن الصغائر إذا اجتمعت على الرجل أهلكته .

---

(١) متفق عليه : البخاري رقم (٢٨٩٨) في الجهاد ، باب لا يقول فلان شهيد ، ومسلم رقم (١١٢) في الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه .

(٢) صحيح : مسلم رقم (١٩٠٥) في الجهاد ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

◉ فعن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ ، وَذَا بِعُودٍ ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ** » قال الحافظ : رواه أحمد بإسناد حسن (١) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ ، صُقِلَ قَلْبُهُ ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا ، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَهُوَ الرَّانُ الذى ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾** رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٢) .

◉ وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُه** » قال الحافظ المنذرى : رواه النسائى بإسناد صحيح (٣) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إنى لأحسب الرجل ينسى العلمَ كما تَعلّمَهُ للخطيئة يعملها أخرجه الطبرانى .

بل إن التهاون بالذنوب من علامات ضعف الإيمان ؛ لأن العبد كلما قوى إيمانه زاد خوفه ، واشتد تحرزه من الذنوب ، ففى صحيح البخارى (٤) عن أنس رضي الله عنه قال : إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر ، إن كنا لنعدها على عهد النبى ﷺ من الموبقات قال البخارى رحمه الله : يعنى بذلك المهلكات (٥) .

وقد قيل : لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظم من عصيت . ولقد بلغ من شدة تحرز الصحابة ـ وهم أقوى هذه الأمة إيمانًا ، وأتقاها قلوبًا ـ أنهم كانوا يخافون النفاق على أنفسهم .

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٢٣١) قال الهيثمي (١٠ / ١٩٠) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، وله شاهد عند أحمد في المسند أيضا (١ / ٤٠٢) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦) ، والصحيحة (٣٨٩) .

(٢) **صحيح** : الترمذي (٣٣٣٤) في التفسير ، باب : ومن سورة ويل للمطففين ، وابن ماجه (٤٢٤٤) في الزهد ، باب : ذكر الذنوب ، ورواه أحمد في المسند (٢ / ٢٩٧) ، والحاكم في المستدرك (٢ / ٥١٧) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣) **حسن** : رواه ابن ماجه : رقم (٤٠٢٢) في الفتن ، باب : العقوبات ، ورواه أحمد في المسند (٥ / ٢٧٧ ، ٢٨٠) بإسناد حسن لأجل عبد الله بن أبي الجعد .

(٤) **صحيح** : رواه البخاري رقم (٦٤٩٢) في الرقاق ، باب : ما يتقي من محقرات الذنوب .

(٥) فتح الباري (١١ / ٣٢٩) .

قال البخاري : وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه [(١)] .

فيجب على العبد الذي يريد النجاة أن لا يتهاون بالصغائر فقد قال النبي ﷺ [(٢)] لعائشة رضى الله عنها : « **إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوب ، فَإِنَّ لهَا مِنَ اللَّهِ طَالبًا** » رواه النَّسائي وابن ماجه ، والدارمي ، وإسناده لا بأس به .

◉ وأخرج أسد بن موسى في الزهد ، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ، وينسى المحقرات ، فيلقى الله وقد أحاطت به ، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مُشفقاً حتى يلقىَ الله آمناً .

١٦ ـ الأمن من مكر الله :

من الناس من يقيم على المعاصي ، فإذا نصحته رد عليك بقوله : « الله غفور رحيم » ولقد نسى هذا المسكين أن عذابه هو العذاب الأليم فقد قال تعالى : ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٤٩﴾ **وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [(٣)] فالله غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين ، ولكن العاصين لهم عذاب أليم ، فلا تغتر أيها العبد برحمة الله ولا تأمن مكره ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [(٤)] .

ومكر الله : استدراجه بالنعمة والصحة [(٥)] .

◉ والأمن من مكر الله يورث الغفلة ، والغفلة تورث التهاون ، وما أدراك ما التهاون ؟! هو سلم الشيطان وسبب من أسباب الخسران ، فمن تهاون في أمر من أوامر الله ، جره الشيطان إلى ما هو أكبر منه ، وهكذا حتى يوقعه في شباك المعاصي .

فلابد للنفس من خوف يردعها عن المعاصي ويصدها عن المحارم ، بل إن المؤمن كلما ازداد إيمانًا ، ازداد خوفًا وشفقة على نفسه ، ولذلك حكى الله عز وجل عن

---

(١) البخاري : كتاب الإيمان ، باب : خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

(٢) صحيح : ابن ماجة رقم (٤٢٤٣) في الزهد ، باب : ذكر الذنوب ، والدارمي (٢ / ٣٠٣) ، وأخرجه أحمد في المسند (٦ / ٧٠) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٣) .

(٣) سورة الحجر الآية (٤٩ ، ٥٠) .

(٤) سورة الأعراف الآية (٩٩) .

(٥) تفسير القرطبي (٧ / ٢٥٤) .

المؤمنين فى الجنة قــولهــم : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (١) .

ولذلك يقول الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وَجِلٌ خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن (٢) .

◉ وعن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : « **لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً** » رواه البخارى (٣) .

◉ ويقول النبى ﷺ : « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ** » رواه الترمذى وحسنه .

يقول المنذرى ـ رحمه الله : ومعنى الحديث : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصَّالحة خوفًا من القواطع والعلائق أ هـ (٤) .

وروى الحاكم عــن بهز بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى رضي الله عنه فى مسجد بنى قشير ، فقرأ المدثر ، فلما بلغ : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٥) خر ميتًا .

◉ وكيف تأمــن مكر الله وأمامُنا يوم تشيب فيه الولدان ؟

يوم نقف أمام الله حفاة عراة ، فيسألنا عــن كل كبيرة وصغيرة ، وكل حــركة وسكنة ، ولعمر الله إن الأمر عظيم ، والخطب جليل .

◉ عــن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعــت النبى ﷺ يقول : « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ (٦) قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ** » (٧) .

◉ وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **يَقُولُ اللَّهُ : يَا آدَمُ ،**

---

(١) سورة الطور الآية (٢٦ ، ٢٧) . (٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٣٤) .

(٣) صحيح : رواه البخاري رقم (٤٦٢١) في التفسير ، باب قوله : « **لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ** » .

(٤) حسن : أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٧٧) ، والبيهقي (٧ / ٣٥٨ / ١٠٥٧٧) والحاكم في المستدرك (٤ / ٣٠٨) وقال : صحيح الاسناد ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٥٤) وصحح الجامع (٦٢٢٢) .

(٥) المدثر (٨) .

(٦) أي باطن قدميه الذي لا يصل إلي الأرض عند المشي .

(٧) صحيح : رواه البخاري رقم (٦٥٦١) في الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار .

فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، قَالَ : يَقُولُ : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ . قَالَ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ كُل ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله : أينا ذلك الرجل ؟ قال : « **أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ** » . ثم قال : « **والذى نَفْسِى بِيَدِه إِنِّى لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ** » . قال : فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : « **والذى نَفْسِى بِيَدِه إِنِّى لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِى الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِى ذِرَاعِ الحِمَارِ** »[1] .

١٧ ـ القنوط من رحمة الله :

فإذا لم يستطع الشيطان أن يدخل للعبد من باب الأمن من مكر الله شدد عليه الأمر حتى ييأس ويقنط مـن رحمة الله ، فيقول له : إن ذنوبك كثيرة وعظيمة لا يمكن أن تغفر ، ولا يمكن أن تدركك رحمة الله ، فيظل خلف العبد حتى يقنط ، فإذا قنط قال له : إذًا فتمتع من الدنيا بما تشاء قبل الموت ما دمت داخلاً النار لا محالة ، بهذه الطريقة يستدرج العبد حتى ينطلق فى المعاصى والشهوات ليقضى نهمته منها .

فعلى العبد أن يسد هذا المدخل بتذكر رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فالله يقبل توبة الكافر إذا تاب وأسلم فكيف لا يقبل توبة المسلم الذى أذنب ؟!

وقد قيل :

يَا كَثِيرَ الذَّنْب : عَفْو الله مِنْ ذَنْبكَ أَكْبَر
ذَنْبُكَ أَعْظَمُ الأَشْيَاء فِى جَانب عَفْو اللّه تُغْفَر

وقد فتح الله باب التوبة لكل عباده وأطمعهم فى رحمته فناداهم : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾[2] .

---

(١) متفق عليه : البخاري رقم (٦٥٣٠) في الرقاق ، باب قوله عز وجل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ومسلم رقم (٢٢٢) في الإيمان ، باب قوله : « يقول الله لآدم أخرج بعث النار » .
(٢) سورة الزمر الآية (٥٣) .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ : إنها الرحمة الواسعة التى تسع كل معصية كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين ، الشاردين المبعدين فى تيه الضلال ، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . . . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ، ومن خارجه ، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله ، وإنه جاد كل الجد فى عمله الخبيث ، ويعلم ،أن بناء هذا المخلوق الإنسانى بناء واه ، وأنه مسكين سُرعان ما يسقط ، إذا أفلت من يده الحبل الذى يربطه ، والعروة التى تشده ، وأن ما رُكب فى كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ،ويوقعه فى المعصية ،وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم .

يعلم الله سبحانه عــن هذا المخلوق كل هذا فيمد له فى العون ويوسع له فى الرحمة ، ولا يأخذه بمعصية حتى يهيىء له جميع الوسائل ؛ليصلح خطأه ،ويقيم خُطاه على الصراط .

وبعد أن يلج فى المعصية ويسرف فى الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل ، فى هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة النَّدىّ اللطيف :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وإذا ما علمنا سبب نزول هذه الآية رأينا سعة رحمة الله للعالمين جميعًا .

◉ يقول ابن عباس رضي الله عنهما (٢) : إن ناسًا من أهل الشرك قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل : **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**

(١) الظلال (٥ / ٣٥٨) ، والآية من سورة الزمر : رقم (٥٣) .

(٢) متفق عليه : البخاري رقم (٤٨١٠) في التفسير ، باب قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا ﴾، ومسلم رقم (١٢٢) في الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله .

(٦٩) إلاَّ من تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) ونزل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ (الآية الزمر : ٥٣) .

◉ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إنَّ اللَّهَ يَبْسطُ يَدَه باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » رواه مسلم (٢) .

◉ وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » رواه الترمذى وقال : حسن غريب (٣) .

◉ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٤) : « يَضْحَكُ اللهُ إلي رَجُلَيْنِ ، يَقْتُلُ أحَدُهُمَا الآخر ، يَدْخُلانِ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُسْتَشْهَدُ »

◉ وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كانَ فِيمنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأتَاهُ فَقَالَ : إنَّهُ قَتَل تسْعَةً وَتِسْعِين نفسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لاَ ، فَقَتَلَهُ ، فَكَمَّلَ به مائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ ؟ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِم . فَقَالَ : إنَّهُ قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ انْطَلِقْ إِلَى أرْضِ كَذَا وكَذَا ،فَإِنَّ بِهَا أنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ ـ تَعَالَى ـ فَاعْبُد اللهَ مَعَهُمْ ، وَلاَ تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ فَإنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إذَا نَصَفَ الطَّرِيقُ أتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائكَةُ العَذَاب :فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِباً مُقبلاً بِقَلْبه إلي الله ، وَقَالَتْ مَلائكَة العَذَاب : إنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطّ ، فَأتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمي ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ ـ أىْ حَكَمًا ـ فَقَال : قِيسُوا مَا بيْنَ الأرْضَيْنِ ، فَإلَي أيتهمَا كَانَ أدْنَى فَهُوَ لَهُ ، فَأوْحَى اللهُ إلِيَ هَذه أنْ تَبَاعَدى ، وَإلى هَذه أنْ تَقَرّبِى ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوه أدْنَى إلى الأرْضِ الَّتِي أرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلائكةُ الرَّحْمَة » (٥)

(١) سورة الفرقان الآية (٦٨ ـ ٧٠) .
(٢) صحيح :رواه مسلم رقم (٢٧٥٩) في التوبة باب : قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .
(٣) حسن: الترمذي رقم (٣٥٣٧) في الدعوات ، وابن ماجة رقم (٤٢٥٣) في الزهد ، باب : ذكر التوبة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٩) .
(٤) متفق عليه: البخاري رقم (٢٨٢٦) في الجهاد والسير ، باب : الكافر يقتل المسلم ثم يسلم ، ومسلم رقم (١٨٩٠) في الإمارة ، باب : بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر .
(٥) متفق عليه: البخاري رقم (٣٤٧٠) في أحاديث الأنبياء ، باب : ٥٤ ، ومسلم رقم (٢٧٦٦) في التوبة باب : قبول توبة القاتل .

◉ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ ، يَا ابْنَ آدَمَ : لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاء ،ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ ، يَا ابْنَ آدَمَ : لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** » رواه الترمذى وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) .

ويكفيك أن تعلم أن الله ـ تعالى ـ تاب على وحشى قاتل حمزة عم النبى ﷺ (٢) فهل بعد ذلك من يأس أو قنوط ؟! لا والله ولكنها حيلة من حيل الشيطان وشبكة من شباكه .

فلا تيأس ، وإن عظم ذنبك وكثرت معاصيك فإن عفو الله أعظم ، ولكن تب وارجع إلى ربك وقل :

يَا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِى كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إلا مُحْسِنٌ ... مَنْ ذَا الَّذِى يَدْعو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
مَالِى إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إلا الرَّجا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّى مُسْلِمُ

* * *

(١) حسن : الترمذي رقم (٣٥٤٠) في الدعوات ، باب : في فضل التوبة والاستغفار وفي سنده كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان ، ورواه الدارمي (٢ / ٣٢٢) ، وأحمد في المسند (٥ / ١٧٢) وحسنه الألباني بشواهده في الصحيحة رقم (١٢٧) .
(٢) انظر لباب النقول ١٨٥ .

الفهـــرس

تابع الفهرس

التجهيز الفني بشركة الندى للتجهيزات الفنية ٠٤٠ / ٢١٢٠٢٧٧

مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ

مع بني الإنسان

تأليف

وحيد بن عبد السلام بن بالي

دار ابن رجب



تأليف
وحيد بن عبد السلام بن بالي

دار ابن رجب

الطريق إلى
الولد الصالح

تأليف
وحيد بن عبد السلام بن بالي

دار ابن رجب